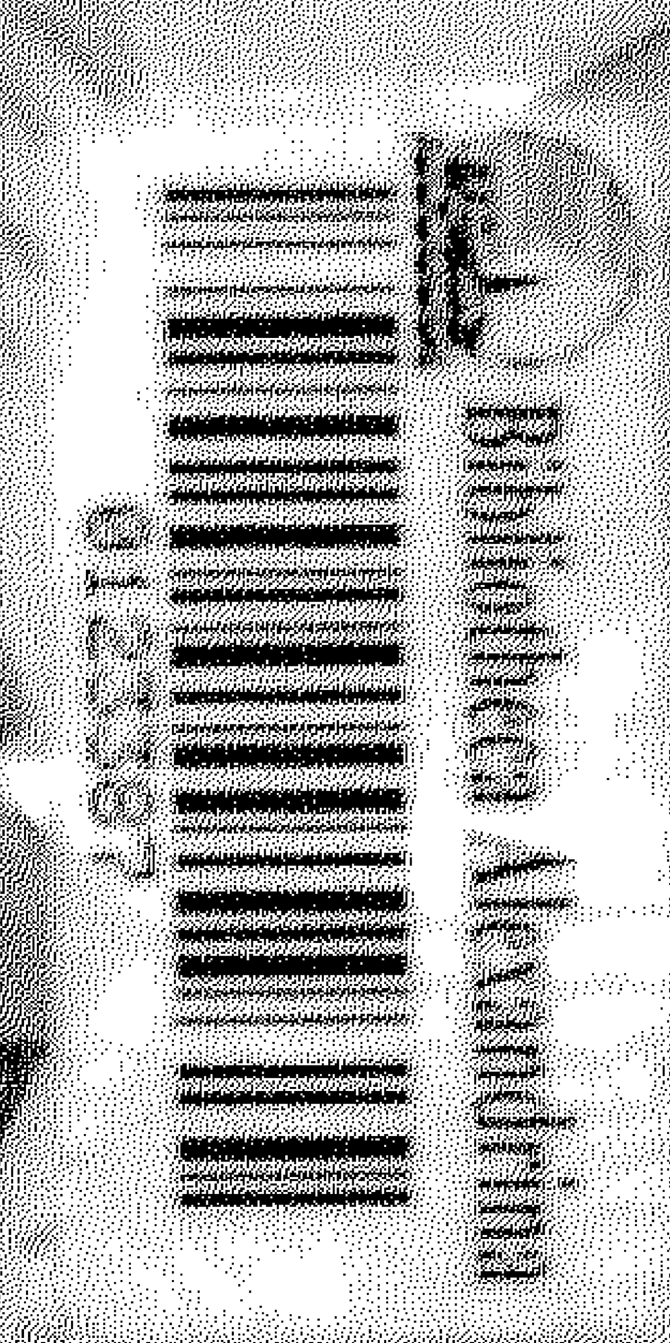
الشيخ محمد الغزالي

بين النقد العاتب والمدح الشامت

تأليف

محمد جلال كشك



مكتبة التراث الإسلامي



محمد جلال كشك

مكتبة التراث الإسلامي
٨ شارع الجمهورية عابدين ت : ٣٩١١٣٩٧

الطبعة الأولى

١٤١٠هـ - ١٩٩٠ م

مكتبة التراث الإسلامي



٨ شارع الجمهورية عابدين القاهرة ت : ٣٩١١٣٩٧ فاكس : ٣٩١٣٤٠٦

﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾

[٨٩ ـ الأعراف]

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة قبل الحوار وعنه

أصدر الشيخ محمد الغزالى كتابا أسماه « السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث » أثار فيه قضية قديمة ، قدم الكائدين والمارقين ومن فى قلوبهم مرض ، قضية التشكيك فى الإسلام من خلال الطعن فى السنة ، بتصيد غرائب الحديث أو ما يظنونه غريبا ! وكانت هذه الفتنة قد ثارت ، قبل ربع قرن ، فتصديت لها بكتابى « الحق المر » ثم عالجتها كلما ثارت فى كتابات متفرقة ، حتى فوجئت بكتاب الشيخ ، وراعنى المنهاج والاسلوب اللذان عالج بهما الشيخ قضايا ذات ابعاد خطيرة ، لا تخفى عليه . راعنى بالذات أنها تصدر من شيخ له مكانته عند العامة ، الأمر الذى يعطى لهذه الشبهات ثقلا خاصاً كما هلل واغتبط كاتب صحيفة الشيوعيين ، الذى دافع عن احتلال الروس لافغانستان !

وقد قرأت الكتاب ووضعت ملاحظاتى على صفحاته وطويته وأنا كظيم . فلأسباب معروفة لم تكن عندى فى ذلك الوقت فرصة ولا وسيلة لنشر رأيى فيه . ولكن لله تدابيره ، ولم يخطىء القصد من قال : « من أمسك بابا أعطاه الله مفتاحه .. » أو إن شئت فقل إذا أراد الله أمراً يسر له الأسباب . فقد فوجئت بصديق أو ابن عزيز لم أقابله من عشر سنوات ، يزورنى ويدعونى للكتابة .. ففعلت ونشرت ملاحظاتى عن كتاب الشيخ ، تأسيا بقوله فى كتابه ــ الفتنة هذا : « وهناك قضايا لا يجوز فيها التساهل لخطورتها » .

وليس بينى وبين الشيخ حفظه الله وعافاه ، عداوة ولا خصومة ولا حتى متابعة ، هو كتب عنى وأنا فى العشرين ، وأنا لم أكتب عنه إلا هذه المرة . وأنا لم أدخل فى جدل مع شيخ إلا فيما ندر وعندما يصل الأمر إلى القضية التى لا يمكن السكوت عنها . وقديما قالوا : نحن نحب فلانا ولكن نحب الحق أكثر .. ولعل الذين قرأوا ما نشرته فى مجلة «المسلمون» قد لاحظوا اننى تلطفت فى مخاطبة الشيخ بكل ما يستوجبه أدب الحوار ، والاحترام . وأعترف اننى لم أكن أتوقع حوارا ولا مناظرة ، لأسباب لا تخفى عن الذين تابعوا ما كتبت ، والذين سيقرأون هذا الكتاب . ما توقعت أن يرد الشيخ ، وان تمنيته !

ولكنى لم أتوقع أيضا أن ينفعل إلى هذا الحد ، فيترك لبعض المنتفعين به استغلاله ، فيردون بأسلوب الغمز واللمز . بل الدس ومحاولة منعى من النشر فى البر والبحر !!

مفهوم أن يعلن الشيخ أنه لن يجادل . بل وإنه أغلق باب الاجتهاد أو الجدل فى كتابه ! ولو سكت عند ذلك ، لفهمت عذره ، ولربما قال الناس : رفض الجدال عن ترفع أو زهد ، ولكنه لم يفعل ، ولم يفعل أعوانه بل هرعوا يفتشون فى ملفاته أو ملفاتى فخرجوا لنا بفقرة من كتابى : «خواطر مسلم فى المسألة الجنسية» . نشروها للاسف بامضاء الشيخ ! و « خواطر مسلم فى المسألة الجنسية» هو الكتاب الذى تعرض من ست سنوات لمحاولة دس رخيصة عندما حرض كاتب كبير على مصادرته ! وفعلا صودر الكتاب ، لأمر أراده الله ، فقد أصبحت للكتاب قضية ، وأحيل للمحكمة التى طلبت من شيخ

الأزهر انتداب لجنة لإبداء الرأى فيه ، فشكلها ــ جزاه الله خيرا ــ من علماء افاضل ، درسوا الكتاب وأصدروا رأيهم ببراءته من كل ما يخالف الدين . وعليه صدر حكم المحكمة بالافراج عن الكتاب وطرحه فى الأسواق ، وقد أعلنت عنه فى الصحف وبيع منه الكثير ومازال يباع وهكذا شاء ربك أن يكون هذا هو كتابى الوحيد الذى صدر بموافقة وقرار من الأزهر والقضاء معا !

وأنا أعلم يقينا أن الشيخ قد قرأ الكتاب وعلم بما فيه ، فلماذا سكت .. لماذا لم ينقض أو ينقد أو حتى ينبه .. لماذا سكت ست سنوات .. أليس من حق قارىء أن يتقول عليه بأنه اختار دور الشيطان الأخرس طوال ست سنوات ؟! أم لعله ود أن يدهن فندهن؟! فلما تكلمنا بالحجة والمنطق عبس وبسر وحرف القول عن مواضعه ! هذا هو السؤال الذى فات من نشروا بيان الشيخ . أما أنا فأعيذ الشيخ أن يكون هذا منطقه ، وإنما هو ما فعله السفهاء باسمه شأن الدبة !

هذا كتابى متاحاً للخاصة والعامة ، والشيخ مسئول أمام الله والناس أن يتصدى لما يرى من خطأ فيه . وهو قد تصدى لتنقيح الصحاح وتطهيرها مما دس فيها ، كما يعتقد ! وهو يتعرض لما دون كتابى ، وهو قد اهتم بما فى كتابى إلى حد النشر عنه فى كل من جريدتى «الشعب» و «المسلمون» فلعله يتقدم لنقد الكتاب الذى أراد التشهير به ، فننتفع إن قال صوابا ، أو نرد عليه فينتفع الناس .. أما نشر فقرة وترصيعها بعلامات التعجب فلا يفيد رأيا ولا يحدد موقفا ! وإن كنت أعترف أن الكتاب سابق لعصره عشرين عاما على

الأقل ومن يطل به العمر سيراهم يقتبسونه ويباهون به الكتّاب . المؤكد ، على أية حال ، أن أحدا لم يجرؤ على نقده إلى اليوم . حتى الشيخ اكتفى بنشر فقرة وسماها تفسيرا طريفا للقرآن ، وهو تعبير غريب ، أخشى أن يظنه من يختطفون القول تقريظا للكتاب !

آثر الشيخ أن يعمل بالمثل القائل : « الباب اللى يجيلك منه الريح سده واستريح » فرفض الجدل .. ولكن هيهات ! لأن قفل باب الجدل فى كتاب الشيخ ، وما اثاره من جدل أو فتنة ، ليس بالقرار الذى يصدر من جانب واحد ، وإن امتنع هو عن الجدل فلن ينال السلامة ! وقديماً قيل من ألف فقد استهدف .. فما بالك بمن تعرض لأئمة الحديث ؟! بل وللحديث ذاته ، فرفض ما لم يتفق مع فهمه أو ما لا يتفق مع ذوق الامريكيين والاستراليين !

وقد ناقشت أهم الاعتراضات التى أثارها الشيخ ضد الحديث وعلماء الحديث ، وعارضت الشيخ فى منهاجه الذى يحل مشكلة الحديث الذى يستعصى فهمه ، أو ما شكك المستشرقون والكافرون فيه ، يحل مشكلته ، بإنكار الحديث أو إسقاط قيمته مع الاعتراف بصحة سنده ! وهو موقف قد يكون الشيخ مجتهدا فيه . ولكن ليس له أن يلزم الناس به. وهو موقف لم يسبقه إليه أحد من شيوخنا بل ويتعارض تماما مع تاريخ الشيخ وما كتب كما قال بخبث مادح الشيخ فى صحيفة الأهالى !

ولا يجوز مهما كان نفوذ الشيخ ومكانته عند الناس أو سلطانه أن يسكت عما طرحه من آراء تفتح باب الجدل فى قيمة الاسناد وعلم

الحديث والتاريخ . ولا أريد أن أستطرد فأشغل القارىء عن متن الكتاب ..

وقد ألح عليّ كل من قرأ ما نشرته فى جريدة « المسلمون » أن أعيد نشره فى كتاب ، والبعض خوفني من المنتفعين باسم الشيخ ونفوذهم عند السلطات هنا وهناك فزادونى إصرارا على نشر ما قلت فى هذا الكتيب ، بعد أن أضفت إلى ما نشر ، بعض القضايا وفصلت ما سبق أن أجملت .

وإذا كنت قد عالجت فى هذا الكتيب ، أسلوب الشيخ فى تناول مصادر السنة وكبار أصحاب الحديث ، واختياره — كما قلت — فى محاجاة المتطاولين على السنة ، أسوأ المواقف — فى اعتقادى — ألا وهو إنكار الحديث أو التنصل منه .. وذلك كله مفصل فى الصفحات التالية . فإنما أريد أن أشير هنا فى عجالة إلى كلمة ثناء كتبها متعصب للشيخ يشد بها ظهره فقال : ان الفقه قبل الشيخ ، كان فقه دورة المياه ! حتى بعث الله فى الأميين شيخا جاء بالفقه للحياة !! ولعلنا نذكر أن شعار الفن للحياة .. إلخ هو من شعارات الشيوعيين التى سَخَّفْتُها أنا وهزأت بها قبل ثلاثين سنة وقلت ، فيما قلت ، ساخرا : حتى كتاب الموتى الفرعونى كان للحياة !!

قال : «ولفضيلة الشيخ طريقة معروفة هى أنه يُعطى القضايا الرئيسية فى عصرنا الاهتمام والأولوية التى تناسبها ، ويغيظه أن بعض المنتسبين للدين ينصرفون عن هذه القضايا التى تهدد الأمة فى وجودها ومصيرها ويهتمون بقضايا هامشية جزئية أطلق عليها الشيخ ساخرا

فقه دورة المياه للأمور الصغيرة التى يبددون جهودهم فيها» .
(الشعب ١٣/٣/١٩٩٠)

دعنا من السخرية بتراث نباهي به الأمم ، وغطى كل حاجات الإنسان ، دعنا من التعريض بمنهاج الإسلام ، والجرى وراء المستغربين الذين يؤلفون الآن الكتب فى اهتمام المسلمين بالاستنجاء ! وقد كان السلف الصالح الذين سيطروا على العالم فى عصرهم ، يقولون ، بفخر واعزاز : «كان رسول الله ﷺ ، يعلمنا الخراءة» : «عن أبى بكر بن أبى شيبة عن سلمان قال : قيل له قد علمكم نبيكم ﷺ كل شيء حتى الخراءة قال : فقال أجل لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائط أو بول أو أن نستنجي باليمين ـــ الحديث «وعن محمد بن المثنى عن سلمان قال : قال لنا المشركون إنى أرى صاحبكم يعلمكم حتى يعلمكم الخراءة فقال أجل ـــ الحديث» (صحيح مسلم ـــ باب الطهارة) وهناك الكثير من الأحاديث فى آداب التبول والتبرز والاستنجاء ، ولم تشكل هذه أبدا عائقا عن التحرر بل كانت من صميم الإعداد النفسى والخلقى ، لهذه الحضارة المتميزة ، ومرة أخرى اعذرونى ، فقد تذكرت محاورة بين ابنى وفتى أمريكى حول التخلف والتقدم ، وكان ابنى (عمر) دون السادسة عشرة فقال له : تأمل .. ان الإنسان الغربى يعيش فوق الأنهار وبلاده تمطرها السماء يوميا ومع ذلك تستنجون بالورق ، ولم تتعلموا عادة الاستحمام إلا حديثا جدا .. بينما المسلم فى الصحراء حيث الماء أغلى أحيانا من الدم ، ولكن دينه علمه أن يستخدم بعض هذا الماء فى إزالة القذر ..

وتذكرت كيف كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، يفتح فارس

وبيزنطة ، ويطوف فى مكة يفتش على نظافة الشوارع ، ويأمر أبا سفيان بالتنظيف أمام منزله ! هؤلاء الذين اهتموا بدقائق السلوك ، غيروا تاريخ العالم ، حتى وصلنا إلى ابن احسان الذى يسخر من فقه الوضوء !

ولست أدرى هل قرأ هذا المدافع كتاب الشيخ ؟! وهل يستطيع القول إن الاهتمام بعذاب الميت فى القبر ببكاء أهله عليه ، أكثر أهمية للحياة ومشاكلها وللقضايا الرئيسية التى تهدد وجود الأمة ومصيرها .. من نقائض الوضوء ؟!

وإن جاز للشيخ ـــ كما أخبرنا ـــ أن يتهم ما كتبه الفقهاء والعلماء فى نقائض الوضوء بفقه دورة المياه ، ألا يعطى ذلك الآخرين الحق فى أن يصفوا فقه الشيخ بفقه المقابر ؟!

هل مما يمس مصير أمتنا أن نتجادل وفى عنف حول القضية التى أثارها الشيخ ودبج فيها الصفحات وأثار بها القراء وأضحك المستشرقين ، وأعنى محضر التحقيق الذى فتحه حول ما حدث لعين عزرائيل على يد سيدنا موسى !! ثم الجدل حول مبحث : هل يمكن أن تفقأ أعين الملائكة ؟! أليس بحث الهالكين من سكان بيزنطة فى جنس الملائكة أكثر جدية ؟!

ألا يحق لنا أن نقول لفتى الشيخ :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

وأخيرا وليس آخرا فأنا لم استسغ قول الفتى عن الذين يعلمون فرائض الدين : « بعض المنتسبين للدين »

لا .. لا ..

هذا قول لا يليق !

بل هم رجال الدين ، هم الذين علموك الوضوء والاغتسال وموجباتهما .. ولا ينقص من قدرهم أنهم لم يخوضوا معك فى حديث فقء عين ملك الموت ولا البكاء على الميت ولا نعيه !

غير أن فجيعتى تفاقمت ، وخيبة أملى تضاعفت عندما لجأ المدافع عن الشيخ لأسلوب رخيص فى الدس والغمز واللمز .. انظروا ماذا كتب :

« عاجل إلى علماء السعودية

فوجئت أخبار ممنوعة وهى تقرأ صحيفة « المسلمون » السعودية ، بدفاعها الحماسى عن حديث الغرانيق أو حديث الآيات الشيطانية كما سماه سلمان رشدى وهو حديث مكذوب يتضمن أن الشيطان ألقى على رسول الله ﷺ آيات فيها مدح للأصنام . ولا ندرى ما وراء هذا الدفاع المريب ولكننا ندرى أن سلمان رشدى سوف يسر به كثيرا وربما اعتمد عليه محاموه فى القضية التى ينظرها القضاء الانجليزى الآن . والكلمة الآن لأهل العلم بالسعودية ونحن نرقب ردهم الذى سيحدد موقفهم من الافتراء الحقيقى على السنة النبوية .. »
(الشعب ١٣/٣/١٩٩٠) .

أشعر بالتقزز .. وأحتاج إلى ورقة أمسك بها هذا القيح ! والغريب أن الجاهل الذى كتب هذا الكلام اختار نفس لفظ القرآن لينسبه إلى سلمان رشدى .. فالله سبحانه وتعالى يقول : ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى . إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى

أمنيته .. فينسخ الله ما يلقى الشيطان﴾ [الحج – ٥٢] .

القرآن كرر ﴿ألقى الشيطان﴾ مرتين ، ولكن كاتب البلاغ لعلماء السعودية لا يعرف القرآن ولعله لم يسمع بالآية ولذلك يزعم ويهلل أن سلمان رشدى هو الذى قال « ألقى الشيطان » .. ياعالم هاتوا لنا حد يعرف الفرق بين الله سبحانه وتعالى وسلمان رشدى .. وبين القرآن ورواية آيات شيطانية .. بئس ما لقنك الشيخ !

وتابع التدهور فعاد وكتب فى نفس الصحيفة يقول : ان صحيفة عربية دفعت لى مبلغا محترما لسب الشيخ .

بسيطة !

ولكن الذى كتب هذا الهراء ، فقد كل حياء عندما قال إن « هذه الصحيفة معروفة بحقدها على كل ما هو مصرى وسبق أن تطاولت فى الصيف الماضى على عدد من أشهر الادباء المصريين .. للأسف بأقلام مصرية استأجرتهم الصحيفة .. الخ » .

وهى كما ترى من روايته : صحيفة شريرة معادية لمصر والمصريين لا يكتب فيها إلا من فقد الانتماء لمصر والمصريين . صحيفة مريبة يكتب فيها امثال جلال كشك وتعطيه الكثير من المال .. ويترفع عن الكتابة فيها الاشراف المؤمنون .. أليس ذلك هو عين ما يوحى به الخبر ، بل وصرح .. معتمدا على جهل العامة بالصحيفة ، وكتابها ؟!

ما رأيكم أن هذه الصحيفة بالذات يكتب فيها الشيخ الغزالى بانتظام بل هو أبرز كتابها وأعلاهم أجرا ؟! هل الكذب بهذا الأسلوب هو خلق الشريف .. (لا أقول خلق المسلم ، فهذه قضية

انتهى فيها الجدل) حاشا لله أن ينتسب أو انسب للإسلام من إذا خاصم فجر وإذا حدث كذب .. هذه الصحيفة يكتب فيها الشيخ بانتظام منذ كانت ، وقد جمع مقالاته فيها ونشرها فى أكثر من كتاب منها كتاب «الحق المر» وهو يكتب فيها إلى الآن .. بل وبلغ من نفوذه عند هذه الصحيفة ، واعزازها له ، أن منع نشر ردى عليه فيها بعد أن هاجمنى فى صفحتها الأولى .. بل واشترط أن امنع من الكتابة فيها ، واستجابوا اعزازا له واعترافا بمكانته عندهم وهى التى اتهمها الفتى بكل كريهة ، فى صحف مصر حيث القراء الذين يظنهم لا يقرأون ما يصدر بالخارج لأن الصحيفة ممنوعة من دخول مصر !

هل من خلق الأشراف أن يغرروا بالناس ويفتروا على الحقيقة على هذا النحو .. من يعصم الشباب عندما يرون خلافا فكريا ، تستخدم فيه أحط الأساليب من الكذب والتزوير ؟!

وعلاقتى بالصحيفة لم تبدأ إلا منذ ثلاثة أسابيع قبل نشر هذا الكلام من صبية الشيخ ومع ذلك فالحق أحق أن يقال ، فهذه الصحيفة لم تعرف بحقدها على المصريين بل كل الذى حدث أنها قد هاجمت ، منذ فترة ، أدب الفراش الذى كان يكتبه احسان عبد القدوس ، من طراز : «بصى للسما وقولى تزوجتك» أو «وكأنها تلبس البنطلون تحت جلدها» الخ ما ارتكب احسان عبد القدوس فى حق هذه الأمة ، وكل من فى قلبه ذرة من إيمان لا يجوز أن ينحاز أو يغضب لقائل هذا الإفك ، مهما كانت قرابته . وكنا نتمنى أن لا تأخذ الشيخ وتلاميذه الحمية لاحسان ، فنسمع منه ومنهم نقدا للدور الذى لعبه احسان فى ميدان الأدب كما سمعنا مدحهم لدوره

السياسى . وهو ما لم يحدث للأسف ، ولكن ترحموا عليه . ولعل هذا سر الغضبة على حديث : « أبى وأبوك فى النار ! » قل : ﴿إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ [التوبة ـ ٨٠] هذا دون أى انتقاص من الدور أو الموقف السياسى الذى لعبه أو اتخذه احسان عبد القدوس .

بقى أن نقول فى كشف زيف المتقول ، إن هذه الحملة التى شنت على احسان وأدبه صدرت عندما كان مصرى يرأس تحرير هذه المجلة ، وهو المصرى الوحيد الذى رأس تحريرها فترة !! ولكن حقا إن العرق دساس !

وبعد ، فقد سمح الشيخ لنفسه بأن يقول أو تركهم يتقولون عن ناقديه إنهم « يقضمون قدميه ! » ولن نهبط إلى هذا المستوى ، غفر الله له لن يجرمنا شنئان قوم على الا نعدل وما غضبنا إلا لسنة رسول الله ورفضا للطعن فى أئمة الحديث والتفسير ودعاة التوحيد الذين تصدوا فى ثقة العالم ويقين المؤمن لتفسير حديث الغرانيق واتهامهم بإثبات ما وصفه بأنه « من وضع الزنادقة وأنه أكذوبة ، لم يضعها مستشرقون إنما وضعها ناس عندنا فقدوا الوعى والتقوى » فاختص نفسه بالوعى والتقوى ، وحرم منهما ابن حجر وابن سعد والطبرى !! وقال لمبشر : «إنها من وضع آبائك أيها المسكين لا من عند محمد» وجعل علم ذلك عند « العلماء الراسخين» وأخرج من علمائه الراسخين ، من ذكرنا ، وأدخل نفسه !! وجلس مجلس الزاجر من البخارى ومسلم وابن حجر وابن حنبل بل ومتولى الشعراوى الذين أيدوا حديث السحر واتهمهم بأنهم نالوا من القمم ،

عنيت رسول الله !! على مافى ذلك من غمز فى الآية الكريمة التى أكدت أن موسى نبى الله قد سحر ..

مولاى ! لما انقلب منطقك واصبح يسير على رأسه قضموا قدميك !

وسأقول سلاماً لمحاولة إبلاغ السلطات عنى بوصفى بأننى من السلفيين وهم يعرفون أنها تهمة خطيرة فى زمن خلف كجلد الاجرب ، يعرفون موقف جماعتهم من السلفيين الذين نصبونى لهم إماما .. نعم يعرفون فهم كثيرا ما يُستعان بهم فى نهى الشباب عن سلفيتهم !

حقا !

ماكان الله ليطل دم عبد القادر عوده وصحبه .. وهم أعلم !

وحقا ذهب الزبد جفاء وإن شربوا له الانخاب !

غفر الله لنا ولك وطهر قلوبنا ..

القاهرة

شعبان ١٤١٠ مارس ١٩٩٠

الفصـــل الأول

فى الامثال : « قل لى من هم أصحابك ، أقل لك من أنت » .. وبقليل من التعديل يمكن أن نخترع مثلا جديدا هو : « قل لى من يصفق لك ، أقل لك ماذا فعلت أو قلت » .. وما كنت أحب أن أكتب هذا عن شيخ فاضل فى مكانة الأستاذ الغزالى وعلمه ، ولا أن اقول له : « ومن العلم ما قتل » وبخاصة أن للرجل عندى سالفة ، فقد تصدى للرد على كتابى « مصبريون لا طوائف » عام ١٩٥٠ ، وكنت قد انتقدت فيه الإخوان المسلمين فأسرفت . ورد هو فأغلظ القول ، ولعن الله اللجاجة ، فقد كشفت من سنى وسنه ما كان مستورا !! فها أنا اعترف بأننى ألفت ، والغزالى نقد قبل أربعين سنة !

لقد صادف كتاب الشيخ قبولا ممزوجا بالدهشة ، من قطاع واسع ، وبخاصة الشباب الحائر بين تمسكه بدينه وبين ما يفرضه المتشددون المنبتون ، وهذه قضية أخرى عالجناها وعالجها الكثيرون منذ أكثر من قرن ، وكان فضيلة الشيخ من الذين عارضوا أسلوبنا ورفضوه . أعنى الكشف عن جوهر الدين ، بعد إزالة تراب قرون التخلف ، وما تسرب إلى الفكر الإسلامى والفهم الإسلامى من انحرافات الحضارات وخزعبلات الديانات الأخرى ، وتبريرات أو شطحات فقهاء عصور التخلف ، وهاهو كتاب الشيخ يثبت أن الشباب أو نسبة كبيرة منهم يريدون طرح هذه القضايا التى تأزم الحوار حولها والموقف منها فى السنين الأخيرة .. ونحن نعتقد أن

الشيخ فى هذا الباب لم يأت بجديد ، بل سبقه الكثيرون ليس فقط فى الزمن بل وفى الفكر .. فالشيخ يقدم رجلا ويؤخر أخرى .. كما سنرى . على أية حال لو أنه حماه الله ، ركز فى هذا الجانب ، واستعان بالصبر فى المحاجاة والجدل ، لأصاب خيراً ولما احتاج الأمر منه ركوب المركب الصعب فى تناول الأحاديث الصحيحة السند ..

إلا أن الكتاب ، أيضا ، أثار عاصفة من الاستحسان والاعجاب فى دوائر اتفقنا طويلا نحن والشيخ على الريبة فى كل ما تستحسن ، والشك فى كل ما تصفق وتهلل له . ولعل خير ما نورده هنا هو كلمة محرر صحيفة الاهالى حرفيا لخطورة ما تعبر عنه وما اثاره كتاب الشيخ من آمال فى نفوسهم . خيب الله ظنهم .. كان كاتبهم قد نشر صورة الشيخ وإلى جانبه صورة بالبدلة لعلى عبد الرازق وكتب تحتها :

«الحملة المسعورة على الشيخ محمد الغزالى»

«بداية اقر اننى اختلف مع الشيخ محمد الغزالى فى اغلب اطروحاته . وازعجنى الهجوم الظالم الذى شنه منذ شهور فى الصفحة الأخيرة فى جريدة الشعب على مفكر إسلامى مستنير نكن له جميعا وافر التقدير خاصة وان فضيلته استخدم الفاظا كنت أرجو ألا تصدر منه .

ومع ذلك فاننى أرى أن الواجب يحتم على أن اقف معه مدافعا ضد الحملة المسعورة التى تقودها ضده جهات معروفة . ففى عام ١٩٨٩ وعن طريق دار الشروق للنشر صدر للشيخ كتاب بعنوان : (السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث) فيه قدر ملحوظ من العقلانية

والاستنارة وسعة الافق وشجاعة الرأى ويختلف كثيراً عن كتبه أو مقالاته السوابق ، ولقد اعتبرته والكثيرون معى ممن يرصدون تيارات الفكر الإسلامى بداية لمرحلة جديدة ومضيئة فى حياة الشيخ الفكرية ومن ثم استبشرت به كثيرا وتمنيت ألا يكون (بيضة الديك) فى نوعيته وان يستمر صاحب الفضيلة فى السير على هذا المنوال وأنه لو فعل ذلك فسيكون له نتائج طيبة لما له من وزن وتاريخ لا ينكرهما إلا جحود ولكن سدنة الظلامية وأعداء العقلانية وخصوم التنوير افزعهم ذلك المؤلف واقض مضجعهم فحركوا الكتبة (حقتهم) فطفقوا يصبون عليه من المقالات والعواميد والتعقيبات وبلغت الكتب التى دبجت ردا عليه حتى الآن ثمانية ، والذى لاشك فيه ان طريق النقد بالمقالات والكتب والأحاديث طريق مشروع بل وحضارى راق ، وكان حظ الغزالى حسنا إذ اختاروه ، وليت خصوم أو قل اعداء أساتذتنا الكبار من امثال : حسين مروة ومهدى عامل وفاضل رسول قد سلكوه . والشيخ الغزالى له من سعة الافق ونفاذ البصيرة ما به يدرك أن هذه الكتب الثمانية وما قد يتلوها سوف تذروها الرياح وتبتلعها حنايا النسيان وتلفها طوايا الاهمال ويظل كتابه وحده المرجع الذى يذكره الباحثون .

والتاريخ قديمه وحديثه تخبرنا صحائفه عن ذلك واقرب مثل نقدمه كتاب الشيخ على عبد الرازق (الإسلام وأصول الحكم) إذ على أثر صدوره الفت عدة كتب تلعنه وتهاجمه وبعد أعوام قليلة لم يذكرها أحد فى حين أنه ما من بحث جاد رصين أو اجازة دكتوراه أو رسالة ماجستير يكون موضوعها مدنية الحكم فى الإسلام أو أن الإسلام

دين ودولة كما يهرفون إلا وكان مؤلف الشيخ عبد الرازق على رأس قائمة المراجع رغم صغر حجمه وعندما يذكر الناس أئمة التنوير فى العالم العربى يجىء الشيخ على عبد الرازق فى أول الصفوف .

ولكن من الذى يقف وراء هذه الحملة الضارية الموجهة ضد الشيخ الغزالى : يخطط لها ويحرك ترسانة الدعاية فى مصر والبلاد العربية وبعض بلاد الفرنجة عن طريق الصحف التى تصدر فى عواصمها بلغة العرب ؟

لنعرف إجابة هذا السؤال يتعين علينا أن نرد على تساؤل يسبقه : ما الذى قاله الشيخ محمد الغزالى فى كتابه ذلك واثار عليه كل تلك العواصف الهوج ؟ من الصعب أن نجيب فى سطور قليلة ذلك أن ما أورده صاحب الفضيلة فيه كثير ومديد ولكن فى رأيى ان ما أوجع تلك الجهات بل اصابها فى مقتل هو قوله ان ما يشيع ويسيطر الآن على الساحة الإسلامية أو قل اغلبه ليس قواعد وأحكام الشريعة الإسلامية إنما تقاليد عبس وذبيان ونسى الشيخ فى غمرة حماسه لفكرته أن هؤلاء اصبحوا يمتلكون ذهبا يتضاءل بجانبه ذهب المعز وغدوا يتطاولون فى البنيان وفى أشياء كثيرة لم يكونوا يحلمون بها مجرد حلم ورحم الله ايام رعى الغنم واستخراج اللؤلؤ !! وأنهم لا يسمحون لأحد حتى ولو كان فى مكانة فضيلة الشيخ الغزالى أن يعرض بأعرافهم القبلية خاصة وأنها الركائز التى يستندون إليها فى حكمهم العشائرى وفى استئثارهم بالثروات الاسطورية التى جاءتهم فى غفلة من الزمان يستأثرون بها دون المسلمين كما تنص الشريعة لا اعراف القبائل .

وبعد فإننى أرجو الشيخ الجليل ألا تفت فى عضده تلك الحرب الضروس التى أعلنها ويعلنها أعداء التقدم وأعداء مبادىء الشريعة الإسلامية الحقة وان يمضى فى طريقه الجديد الذى بدأه بكتابه ذلك الشجاع الجرىء ، بل ويحلق حوله عددا من التلاميذ الأوفياء يقومون بمنحاه الفكرى الحديث ويسيرون فى ذات الدرب — بعد عمره المديد ان شاء الله تعالى – وبذلك يساهم ويساهمون فى قشع غيوم الظلامية التى تملأ حاليا سماء الفكر الإسلامى . «حرفيا . الاهالى ٢٨ مارس ١٩٩٠» .

وكنت قد أبديت قلقى وضيقى مما كتب الشيخ ، ومن الثغرة التى فتحها ، فتفضل بعض الإخوان وقالوا : ولماذا تحتفظ بهمك فى صدرك ؟! لماذا لا تشرك الناس معك حتى يستبين الحق ؟! وقد علّمنا أمير المؤمنين «على بن أبى طالب» أن نعرف الرجال بالحق ، لا الحق بالرجال . وقد انتقد الشيخ الغزالى أئمة فى الفكر والاجتهاد ، لا نطمح لا نحن ولا هو حتى فى النسبة إليهم ، فما علينا لو قلنا للشيخ حنانيك ، لاتكن علينا فى زمن تكسرت فيه الرماح على الرماح . وبخاصة وقد صدر فى القاهرة كتاب ، نسب إلى كتابات الشيخ بُعدا خطيرا ، هو صدورها عن جهة أو تنظيم لمح عنه الكتاب وصرح بما يثير المخاوف . والعجيب أننى سمعت بهذا التنظيم عندما كان مجرد فكرة فى خاطر أحد المعارف الفضلاء ، الذى كان يتحدث عن الرغبة فى مؤسسة تدافع عن السنة ، التى قلنا يومها ، إنها تتعرض للتشكيك والتجريح وقد آن أن يُرد سهم الكائدين فى نحورهم . ثم مضت الأيام وإذا بكتاب الشيخ هو «أشهر» ما يطالعنا منسوبة

فكرته إلى تلك المؤسسة ، وهو أشد نقد وجه للحديث والمحدثين ! وإن كان الشيخ قد برأهم منه وحملها وحده .

وللحقيقة فإن بقية ما اطلعت عليه من مطبوعات هذا التنظيم لا غبار عليها ، بل ومعظمها فى خدمة المسلمين . أما كتاب الشيخ فحسبك منه أن مؤلفه رأى من واجبه بعد نشره ، تأكيد إسلامه فقال فى مقدمته : «وأؤكد أولا وأخيرا أننى مع القافلة الكبرى للإسلام» .

بالتأكيد يامولاى .. ولكن ما أكثر الذين يسيرون ويسايرون ويتبعون ويقتفون أثر القافلة ، فالمهم أين موقعك وموقفك منها . هذه هى القضية وقد كنا ولا نزال نريدك هاديا أو حتى حاديا لها فما مثلك من يطوف بقرائه على جيف الفكر .. !!

ولعل الشيخ قد استراب فى هذا الرواج الذى جعل كتابه يطبع سبع طبعات إحداهن بالأوفست خلال عام واحد ، وهو ما لم يحدث لأى من كتبه ، وهو بالقطع ليس خير كتبه .. فما السبب ؟!

الجواب فى اعتقادى ، هو أن الشيخ قد اختار ميدانا محببا للمبشرين والكائدين للإسلام منذ قرون ، أعنى الطعن فى السنة وتصيد غريب الحديث ، وإقامة قضية على ما يظنون أنه مناقض للعقل أو العلم ، أو تتبع المتشابهات ، وهو داء قديم فى المنافقين والمنافقات والذين فى قلوبهم مرض . خذ مثلا هذا الذى احترف الكيد للإسلام وتصيد ما يعتقد أنه يسبب الحرج للمستضعفين من المسلمين ! فهو لا يكف عن الحديث فى سن السيدة عائشة ، عندما عقد عليها للنبى صلوات الله عليه وسلامه . وهو يدبج الصفحات حول حديث أو

بالأحرى رواية .. «رأيت أصحابه إذا تفل أو تنخم صلوات الله عليه .. الحديث» . وهذا فعل من يريد الفتنة .. إذ ما أهمية الجدل فى صحة الحديث أو لياقته الآن وقد انتقل صلوات الله عليه للرفيق الأعلى ولا أحد يفعله لأحد اليوم ! وشهد الله لو بعث رسوله حيا لفعلناه راضين فرحين . فذلك نبى ، والناس لا يعرفون ، أو بالأحرى هذا الصنف من الذين يتصيدون هذه القضايا ويتقولون فيها ، لا يستوعبون حجم الحقيقة التى تتمثل فى وجود نبى يتصل بالسماء ويعيش فى نفس الوقت بين الناس .. إن هؤلاء الحمقى يقيسونه بزعيم أو حاكم ! ومن ثم يستكبرون مسلك أصحابه ومعاصريه ! هذه قضية لا تخضع لمقاييسنا ، ولا تمثل أى تأثير على حياتنا ، وإنما يثيرها من يريد الفتنة ويسعى لها ، كبه الله على وجهه فى الدنيا والآخرة .

والغريب أنه قبل أربعين عاما أصدر الأستاذ «خالد محمد خالد» كتابه : «من هنا نبدأ» وأقام جانبا كبيرا من دعواه ، فيه ، على تلك الأحاديث من طراز : نصفه ثلج ونصفه نار أو القضايا الفقهية فى عصر الترف الفكرى مثل : «لو حمل قربة مملوءة فساء» الخ .. ونال كتاب «خالد» يومها شهرة تفوق شهرة كتاب الشيخ اليوم ، فتصدى له الغزالى فى كتابه «من هنا نعلم» . ودار الزمان دورته وكان ما نحن فيه ، وصدقت مقولة : من عاير أخاه ولو برضع لبن كلبة لم يمت حتى يرضعها ! وصدقت خبرة الأسلاف عندما قالوا : العبرة بالخاتمة .

وكنت قد أصدرت دراسة حول الموقف من الحديث أو السنة وذلك منذ ٢٢ سنة فقلت إن علماء الحديث عندنا هم الذين أسسوا

علم التحرى والتمحيص، هم الذين بدأوا بمنهاج الشك قبل ديكارت وقبل الذين نقلوا عن ديكارت ثم ادعوا أنهم قد اكتشفوا كشف الفتوح العلا (مثل طه حسين) ! والغريب أن بعض الببغاوات ، لا يكتفون بترديد أكذوبة أن طه حسين أو غيره هم الذين اكتشفوا منهاج الشك وعلموه للمسلمين ، بل انهم يرددون أيضا أضحوكة ، أن ديكارت هو مكتشف هذا الفن أو المنهاج وينسون أن شيوخنا الذين وضعوا علم الحديث هم أساتذة هذا المنهاج .

فقد بدأ شيوخنا بالشك فى الرواية ، ومن ثم عرضوا الحديث لكل وسائل التحقيق والتمحيص والجرح والشك الممكنة ووضعوا لأول مرة ما يشبه WHO was WHO للصحابة والتابعين بحيث عرف ميلاد ووفاة وأمكنة وتواريخ وجود كل صحابى على أقرب وجه من الدقة ، لضبط صحة النقل عن رسول الله . وقلنا إن الحديث الغريب أو بالأحرى الذى يبدو غريبا لجيل بعينه ، لا يجوز أن نتخلص منه بالتشكيك فى صحته . وأقول اليوم إن أخطر أنواع التشكيك هو ما ذهب إليه الشيخ فى قوله إن الحديث : «لا قيمة له ، مهما كان سنده» !! (ص ٣٠) .

هذا قول عظيم تكاد تدك له الجبال دكا ، بل هذا نفي للسند كله . هذا قول يفتح بابا للفتنة شديد الخطورة ، لأن القول بإمكانية أن يكون هناك حديث صحيح السند فاسد المحتوى ، يعنى إما أن الرسول صلوات الله عليه يمكن أن يقول حديثا مخالفا للقرآن ، مخالفا للتعاليم الإسلامية ، مخالفا للعقل والمنطق والذوق ! وهذه هى الأسباب التى اعتل بها الشيخ على الأحاديث التى أوردها ، وهو قول

باطل مخالف للدين بلا جدال . وإما أن يكون الحديث صحيح السند ومكذوبا على رسول الله فى نفس الوقت ! وفى هذه الحالة يسقط الإسناد كله أو يتعرض لشك شديد واضطراب عسير مجابهته .

ومن حقى أن أفزع عندما أرى الشيخ يتساءل فى استعلاء : « ما قيمة حديث صحيح السند عليل المتن» .

ما كنا نظن أن القيمة تخفى على الشيخ ..

السند هو الحجة التى لا يجوز أن نتعامل معها بخفة أو بالهوى والرأى . أما المتن فعلته تنبع ، من اعتراض فرد هو من ينسب له علة فهى وجهة نظر فرد قابلة للنقد والتجريح أعنى العلة والتعلل ..

السند تحراه البخارى ومسلم ومن فى طبقتهما ، أما المتن فيتعلل عليه أو يتعلل به من ليس يدانيهم علما ولا تحريا . ومن ثم لا يجوز أبدا أن ننتقل من التساؤل والتشكيك إلى الإنكار فى استهتار فيقول : « وكل متدبر للقرآن الكريم يدرك أن الحديث لا قيمة له ، مهما كان سنده ! » (ص ٢٠) وتعجب هو ، وكما يقول العامة : « كان واجب علينا إحنا » .. هذا تصريح بإنكار السنة كلها ، إنكار ما ثبت إسناده عن رسول الله بالسند الصحيح ، مادام يخالف فهم رجل ما فى زمن ما ! يستطيع أى رجل فى قلبه زيغ أن ينكر طريقة الصلاة لأنها لم ترد فى القرآن ويتكىء قائلا : الحديث عن الصلاة لا قيمة له مهما يكن سنده ! على مذهب الشيخ ! الذى لا أعتقد أنه قصد ذلك أو خطر بباله .. بل هو يقصد أن صحة السند لا تجعله ملزما ، ولكنه لم يوفق فى التعبير لاعتبارات عدة منها أنه لا يريد أن يكون فى وضوح رشيد رضا أو كاتبه اللذين قالا بإمكانية الخطأ فى آراء الرسول البشر ، لأن

عصمته ﷺ ، هى فى إطار النبوة فقط .. خشى الشيخ أن يقول ذلك فوقع فى ما هو أسوأ وأكثر فتنة للعامة مثل قوله : الحديث لا قيمة له مهما يكن سنده .. !

نعم ! قلت أنا من ربع قرن إن الحديث لأنه من اثبات البشر ، أى جمعه وإسناده ، فهو لا يتمتع بالكمال المطلق الذى يتمتع به القرآن ، ومن ثم فقد أمرنا بإعمال العقل بتمحيص الإسناد ومراجعته ، لاكتشاف قوته من ضعفه ، فإن ثبتت صحته وخالف منطوقه فهمنا أو ما أثبتته حقائق العصر أو اختلف ظاهر تفسيره عن تفسير نص صريح فى القرآن ، أخذنا بنص القرآن تاركين لزمن أكثر ملاءمة ، ولعلماء أكثر وعيا جبر هذا التناقض الظاهرى على ضوء ما يتكشف لهم . مثل حديث العسل الذى طالما تجادلوا فيه ، لأن حدود علمهم فى ذلك الوقت لم تتجاوز العسل ، ثم اكتشف العلم ، الغذاء الملوكى .. وهانحن نسمع هذه الأيام عن لدغ النحل الذى يشفى من وباء الكبد الفيروسى النشط !! فمن هذا الذى يضع حدا أو قيدا على العلم فيما يكتشفه من هذا الذى : ﴿يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس﴾ [النحل – ٦٩] .

قلنا إن الرسول عليه الصلاة والسلام كانت له صفتان · صفة الرسالة ، فى تبليغ الوحى ، وهذه لا تحتمل الخطأ ولا يجوز فيها اجتهاد ، أو اختلاف الرأى ، بل التسليم المطلق . وهناك صفته حاكما أو قائدا ، وفى هذه يغنينا قوله : «أنتم أعلم بأمور دنياكم» وقد عرف القدماء أن الله قد بعثه نبيا وليس طبيبا مداويا . وهنا يجب أن نفرق بين أحاديث العبادات مثل : «إن الميت يعذب ببكاء أهله» .. وبين

أحاديث الأسباب مثل التداوى بالعسل أو الذباب .. الحديث الأول لا يخضع للبحث العلمى لأنه من علم الغيب . وإن ثبتت صحة سنده صار اليقين به ملزما ..

وقال رشيد رضا : «ولكن الأحاديث الصحيحة ناطقة بأن النبى ﷺ لم يكن مستغنيا عن غيره من الناس إلا فيما ينزل عليه فيه الوحى وقال «أنتم أعلم بأمر دنياكم» رواه مسلم عن عائشة وأنس وقال :« ماكان من أمر دينكم فإلىّ، وماكان من أمر دنياكم فأنتم أعلم به » رواه أحمد ، وفى حديث رافع بن خديجة فى صحيح مسلم أيضا أنه ﷺ قال : « إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشىء من أمر دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشىء من رأيى فإنما أنا بشر» وهذا هو الموافق لقوله تعالى ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ﴾ [الكهف ــ ١١٠] فهو متميز على البشر بالوحى إليه ولكنه فيما عداه بشر تجوز عليه الأعراض البشرية ، ويحتاج إلى غيره فى الأمور الكسبية ، وكونه أكمل لا يقتضى أن يحيط بكل شىء علما ويقدر على كل عمل فإن هذا لله وحده : ﴿قل لاأقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولاأقول لكم إنى ملك﴾ [الأنعام ــ ٥٠] . وقد استشار ﷺ أبا بكر وعمر رضى الله عنهما فى أسرى بدر فاختلف رأيهما فقال «لو اجتمعتما ما عصيتكما» وكان رأيه موافقا لرأى أبى بكر فأنفذه ثم نزل الوحى بما يؤيد رأى عمر وهو قوله تعالى : ﴿ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض﴾ [الأنفال ــ ٦٧] .

من ربع قرن قلت : «إن ما يثبت لنا صحته من حديث رسول الله أو سنته ونعجز عن فهم حكمته أو لا نجد له موضعا فى حياتنا

المعاصرة ، لا يجوز أن نتطاول عليه بالحذف أو الإنكار ، بل نتركه لجيل غير جيلنا ولزمن تتكشف فيه حكمته . لأنه لا حد لما يمكن أن تكتشفه البشرية فى تقدمها من قيم فى سنة رسول الله» . (الحق المر)

على أنى لم أجد حديثا يشق قبوله أو يتعارض تعارضا واضحا مع واقع الحياة وضروراتها إلا وفى سنده مآخذ سجلها السلف .

والغريب أن الشيخ فى موضع آخر من الكتاب اتفق معنا حرفيا إذ قال : «وإذا وقع لغط حول حديث ما فمداره : هل قال الرسول هذا أم لم يقله ؟ .. ! فالكلام فى صحة النسبة وفى ضمانات هذه الصحة لا فى جواز التقدم بين يدى الله ورسوله ، أو أخذ ما يعجب وترك ما لا يعجب .. !!» (ص ٧٣) .. العجب من كثرة تعجبه من قوله ! والعجب الأكبر أنه لم يلتزم بهذا الموقف فقد اختار من الأحاديث ما يحلو له ورفض ما استقبح أو ما رأى أنه لا يليق أن نواجه الامريكان والاستراليين به ! لم يهمه السند ولا بحث فى النسبة لرسول الله بالمنهاج الذى وضعه علماء المسلمين ، بل اعتمد على ذوقه وفهمه واستحسانه ، فرفض حديث الآحاد والجماعة برأى الواحد . بل أخطر من ذلك أنه جعل الحكم على صلاحية الحديث هو ذوق وفهم وقبول الامريكان والاستراليين !!

ويبرر الشيخ هجمته هذه على السنة وعلماء الحديث فى الصحاح بأنه غيرة على «ديننا المكافح المثخن بالجراحْ» (ص ٨)

حاشالله ، ديننا لا تصيبه جراح فضلا عن أن تثخنه ، إنما الجرح فينا نحن .. فى عزائمنا .. فى تديننا .. فى فهمنا .

ديننا هو الكمال المطلق ، منذ أن منّ الله علينا بتمامه ، والشيخ يعلم ذلك ، ولكنها كما يقول علماء النفس فلتة لسان ، لأن طبقة الشيخ قد خرجت من حصيلة الدعوة لما يزيد على نصف قرن مهزومة النفس .. الناس لا يتبعون دين الله ، كما يدعونهم إليه ، والذين اتبعوا هذا الدين ، ليسوا من تلاميذهم ولا شيعتهم بل العجب أنهم اختاروا من كل المتاح فى الساحة ، ما ينتقده الشيخ بقوله : «سلفية مزعومة عرفت من الإسلام قشوره ونسيت جذوره» .

ولو تخلص الشيخ من ضيقه من المنبتين وحاول أن يتفهم الشباب بسعة صدر العالم المؤمن ، لعرف أن اختيار الشباب له ما يبرره ، فلأن الشباب أطهر فطرة وأصدق حسا ، لجأوا إلى ابن تيمية لما دهمهم التتار من بين أيديهم ومن خلفهم ، ومن العدوة العليا والسفلى ! شكوا فى فقه السلاطين والسلطة ، وفروا من كل ما صدر بقهر التترى أو ذهب المعز ..

والنتيجة أن هذا الجيل من الرواد ، يقلب كفيه .. فلا يجد ما كان يملؤه حماسة فى مقتبل العمر وفتوته . والإنسان قليل الاعتراف بالتقصير ، يكره أن ينقد نفسه ، أو أن يعترف بعجزه ، ومن ثم فالجرح فى الدين وليس فى الداعية ! والجرح سببه هذه الأحاديث التى يتصيدها الكائدون للإسلام ، فهب يشفى الدين من جراحه ! ولا تظن أن مبضع الشيخ قد اقتصر على علماء الحديث فقد امتد ونال الفقهاء ، فهو يقول : «ومع هذا فإن الشافعية والحنابلة أجازوا أن يجبر الأب ابنته البالغة على الزواج بمن تكره !! ولا نرى وجهة النظر

هذه إلا انسياقا مع تقاليد إهانة المرأة ، وتحقير شخصيتها » (ص ٤٢)
من الواضح أنه لا يعنى هنا علماء الحديث ، أو لا يعنيهم وحدهم !

إنها نفثة مصدور ، وغضبة مقهور ، وأمنية عالم يتمنى الخير لأمته ودينه ولكن القى الشيطان فى امنيته ، ووقفت شياطين الانس ، من أعداء الإسلام ، ترحب وتهلل وتدعوه لأن يكمل « الخطوة الأولى » فيذهب معهم فى رحلة الألف ميل خاطئة ! ولكن هيهات .. إيمان الشيخ ، بإذن الله ، أقوى مما ألقى الشيطان ، وسيقهر فتنتهم ، ولعل هذه الكلمات تعين الشيخ فى طرد الشيطان . وأيضا عز علينا يامولانا وسط ضجة وصخب شياطين المحتفين ، أن نكون نحن الشيطان المعترض ولكن تخرسه المجاملة !

فتنة الغرانيق !

ويريد الشيخ أن يضرب مثلا بالنكبات التى تجرها علينا الأحاديث الصحيحة فيختار ما يظنه البعض الضربة القاضية ، وأعنى تلك القضية التى أثارها المعادون للإسلام من قرون وتجددت بكتاب سلمان رشدى ، يظنون أنهم القموا بها أهل الحديث حجرا فأوهن العجل قرنه !

أما نحن فنرى فى قصة الغرانيق مفخرة لإسلامنا ، مفخرة لعلماء الحديث والمفسرين وكتاب التاريخ الإسلامى . ولكن الشيخ يثيرها جازعا فيقول : «ألم تر إلى ابن حَجَر شارح صحيح البخارى فى كتابه الجليل فتح البارى الذى قال فيه العلماء بحق لا هجرة بعد الفتح ! إن الرجل على صدارته فى علوم السنة قوّى حديث الغرانيق ، وأعطاه إشارة خضراء فمر بين الناس يفسد الدين والدنيا ، والحديث المذكور من وضع الزنادقة ، يدرك ذلك العلماء الراسخون ! وقد انخدع به الشيخ محمد بن عبد الوهاب فجعله فى السيرة التى كتبها عن رسول الله ﷺ ، والشيخ هو من هو غيرة على عقيدة التوحيد ودفاعا عنها .. ثم جاء الوغد الهندى سلمان رشدى فاعتمد على هذا الحديث المكذوب في تسمية روايته «آيات شيطانية» (ص ٢٠) .

على رسلك ياشيخ ! والله ما أخطأ ابن حجر ولا انخدع الشيخ ولا أفسدت حكاية الغرانيق دينا ولا دنيا ، ولكن نحن فسدت دنيانا وفسد تديننا لما انحط فهمنا ، وأصبنا بالهزيمة فى نفوسنا أمام عدونا ، قبل أن نهزم فى ساحات القتال وأصبحنا نحسب كل صيحة علينا ،

ونتخاذل أمام هجومهم وتعصبهم فنفر إلى تكذيب الحديث .. لماذا لم ينهزم السلف من علماء الحديث والتفسير والتاريخ ، ولا شكوا فى دينهم وهم يثبتون حديث الغرانيق ، ولا قالوا ياويلنا ماذا ستقول عنا ، وعن ديننا ونبينا ، اليهود أو الروم .. ؟!

وقد ناقش ابن حجر الرواية من جميع جوانبها لا تهيب ، ولا أخفى ولا تحيز ثم رجحها فبعد أن نقل تفسير ابن عباس : إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته «إذا حدث ألقى الشيطان فى حديثه فيبطل الله ما يلقى الشيطان ويحكم آياته وصله الطبرى من طريق على ابن أبى طلحة عن ابن عباس مقطعا» ثم قال : «وعن تأويل ابن عباس هذا يحمل ما جاء عن سعد بن جبير ، وقد اخرجه ابن أبى حاتم والطبرى وابن المنذر من طرق عن شعبة عن أبى بشر عنه قال « قرأ رسول الله ﷺ بمكة والنجم ، فلما بلغ «أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى» ألقى الشيطان على لسانه : تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى ، فقال المشركون ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم . فسجد وسجدوا فنزلت هذه الآية . وأخرجه البزار وابن مردويه من طريق أمية بن خالد عن شعبة فقال فى إسناده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فيما أحسب ، ثم ساق الحديث وقال البزار : لا يروى متصلا إلا بهذا الإسناد ، تفرد بوصله أمية بن خالد وهو ثقة مشهور ، قال وإنما يروى هذا من طريق الكلبى عن ابى صالح عن ابن عباس انتهى . والكلبى متروك ولايعتمد عليه ، وكذا أخرجه النحاس بسند آخر فيه الواقدى ، وذكره ابن اسحاق فى السيرة بمطولا وأسندها عن محمد بن كعب ، وكذلك موسى بن عقبة فى المغازى عن ابن أبى

شهاب الزهرى ، وكذا ذكره ابو معشر فى السيرة له عن محمد بن كعب القرظى ومحمد بن قيس ، وأورده من طريقه الطبرى ، وأورده ابن أبى حاتم من طريق اسباط عن السدى ، ورواه ابن مردويه عن طريق عباد بن صهيب عن يحيى بن كثير عن الكلبى عن أبى صالح وعن أبى بكر الهذلى وأيوب عن عكرمة وسليمان التيمى عمن حدثه ثلاثتهم عن ابن عباس ، وأوردها الطبرى أيضا من طريق العوفى عن ابن عباس ، ومعناهم كلهم فى ذلك واحد ، وكلها سوى طريق سعيد بن جبير إما ضعيف وإلا منقطع ، ولكن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلًا مع أن لها طريقين آخرين مرسلين رجالهما على شرط الصحيحين احدهما ما أخرجه الطبرى من طريق يونس بن يزيد عن ابن شهاب حدثنى أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فذكر نحوه ، والثانى ما أخرجه أيضا من طريق المعتمر بن سليمان وحماد بن سلمة فرقهما عن داود ابن أبى هند عن أبى العالية . وقد تجرأ أبو بكر بن العربى كعادته فقال : ذكر الطبرى فى ذلك روايات كثيرة باطلة لا أصل لها وهو إطلاق مردود عليه . وكذا قول عياض هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم متصل مع ضعف نقلته واضطراب رواياته وانقطاع إسناده ، وكذا قوله ومن حملت عنه هذه القصة من التابعين والمفسرين لم يسندها أحد منهم ولا رفعها إلى صاحب ، وأكثر الطرق عنهم فى ذلك ضعيفة واهية . قال وقد بين البزار أنه لا يعرف عن طريق يجوز ذكره إلا طريق أبى بشر سعيد بن جبير مع الشك الذى وقع فى وصله . وأما الكلبى فلا تجوز الرواية عنه لقوة ضعفه . ثم رده من طريق النظر بأن

ذلك لو وقع لارتد كثير ممن أسلم ، قال ولم ينقل ذلك انتهى . وجميع ذلك لا يتمشى مع القواعد . فإن الطرق إذا كثرت وتباينت مخارجها دل ذلك على أن لها أصلا ، وقد ذكرت أن ثلاثة أسانيد منها على شرط الصحيح وهى مراسيل يحتج بمثلها من يحتج بالمرسل وكذا من لا يحتج به لاعتضاده بعضها ببعض ، وإذا تقرر ذلك تعين تأويل ما وقع فيها مما يستنكر وهو قوله «ألقى الشيطان على لسانه : تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى» فإن ذلك لا يجوز حمله على ظاهره لأنه يستحيل عليه ﷺ أن يزيد فى القرآن عمدا ما ليس منه ، وكذا سهوا إذا كان مغايرا لما جاء به من التوحيد لمكان عصمته . وقد سلك العلماء فى ذلك مسالك .

فقيل جرى على لسانه حين أصابته سنة وهو لا يشعر ، فلما عاد بذلك أحكم الله آياته . وهذا أخرجه الطبرى عن قتادة ، ورده عياض بأنه لا يصح لكونه لا يجوز على النبى ﷺ ذلك ولا ولاية للشيطان عليه فى النوم .

وقيل إن الشيطان ألجأه إلى أن قال ذلك بغير اختياره ، ورده ابن العربى بقوله تعالى حكاية عن الشيطان ﴿وما كان لى عليكم من سلطان﴾ الآية [إبراهيم ــ ٢٢] قال : «فلو كان للشيطان قوة على ذلك ما أبقى لأحد قوة فى طاعة» .

وقيل إن المشركين إذا ذكروا آلهتهم وصفوهم بذلك ، فعلق ذلك بحفظه ﷺ فجرى على لسانه لما ذكرهم سهوا . وقد رد على ذلك عياض فأجاد .

وقيل لعله توبيخا للكفار ، وقال عياض : وهذا جائز إذا كانت هناك قرينة تدل على المراد ، ولاسيما وقد كان الكلام فى ذلك الوقت فى الصلاة جائزا . وإلى هذا نحا الباقلانى . وقيل إنه لما وصل إلى قوله «ومناة الثالثة الأخرى» خشى المشركون أن يأتى بعدها بشىء يذم آلهتهم به فبادروا إلى ذلك فخلطوه فى تلاوة النبى ﷺ على عادتهم فى قولهم ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾ ونسب ذلك للشيطان لكونه الحامل لهم على ذلك ، أو المراد بالشيطان شيطان الإنس .

وقيل : كان النبى ﷺ يرتل القرآن فارتصده الشيطان فى سكتة من السكتات ونطق بتلك الكلمات محاكيا نغمته بحيث يسمعه من دنا إليه فظنها من قوله وأشاعها . قال : وهذا أحسن الوجوه ويؤيده ما تقدم فى صدر الكلام عن ابن عباس من تفسير «تمنى» بتلا . وكذا استحسن ابن العربى هذا التأويل وقال قبله إن هذه الآية نص فى مذهبنا فى براءة النبى ﷺ مما نسب إليه . قال ومعنى قوله «فى أمنيته» أى فى تلاوته ، فأخبر تعالى فى هذه الآية أن سنته فى رسله إذا قالوا قولا زاد الشيطان فيه من قبل نفسه ، فهذا نص فى أن الشيطان زاده فى قول النبى ﷺ لا أن النبى ﷺ قاله . قال : وقد سبق إلى ذلك الطبرى لجلالة قدره وسعة علمه وشدة ساعده فى النظر فصوب على هذا المعنى وحوم عليه . ا هـ (فتح البارى بشرح صحيح البخارى للإمام الحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلانى ٢٩٢/٢٩٤ طبعة الريان) .

وسنجد أن الذين أخذوا بأسلوب الإنكار قد داروا حول ما قاله ابن حجر وهو : «ولكن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلا»

فحاولوا ايجاد التأويل وأغلبهم استقر على تأويل الطبرى الذى قال ان الكلمات من الشيطان ، وهو تأويل مطابق للنص القرآنى ، إلى حد ينفى عنه التأويل !

سيد قطب ، انكر ما ورد فى القصة ، وقال : «لقد رويت فى سبب نزول هذه الآيات روايات كثيرة ذكرها كثير من المفسرين . قال ابن كثير فى تفسيره : «ولكن من طرق مرسلة ، ولم أرها مسندة من وجه صحيح . والله أعلم» . وأكثر هذه الروايات تفصيلا رواية ابن أبى حاتم قال حدثنا موسى بن أبى موسى الكوفى ، حدثنا محمد بن إسحاق الشيبى ، حدثنا محمد بن فليح ، عن موسى بن عقبة ، عن ابن شهاب ، قال : انزلت سورة النجم ، وكان المشركون يقولون : لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير اقررناه وأصحابه ولكنه لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذى يذكر آلهتنا من الشتم والشر . وكان رسول الله ﷺ قد اشتد عليه ما ناله أصحابه من أذاهم وتكذيبهم ، وأحزنه ضلالهم ، فكان يتمنى هُداهم فلما أنزل الله سورة النجم قال : ﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ؟ ألكم الذكر وله الأنثى﴾ .. ألقى الشيطان عندها كلمات حين ذكر الله الطواغيت فقال وانهن الغرانيق العلى وان شفاعتهن لهى التى ترتجى . وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته . فوقعت هاتان الكلمتان فى قلب كل مشرك بمكة ، وزلت بها ألسنتهم ، وتباشروا بها ، وقالوا : إن محمدا قد رجع إلى دينه الأول ودين قومه .. فلما بلغ رسول الله ﷺ آخر النجم سجد ، وسجد كل من حضره من مسلم أو مشرك فعجب الفريقان كلاهما من جماعتهم فى السجود فأما

المسلمون فعجبوا لسجود المشركين معهم على غير إيمان ولا يقين . ولم يكن المسلمون سمعوا الذى ألقى الشيطان فى مسامع المشركين ، فاطمأنت أنفسهم — أى المشركين لما ألقى الشيطان فى أمنية رسول الله ﷺ وحدثهم به الشيطان أن رسول الله ﷺ قد قرأها فى السورة ، فسجدوا لتعظيم آلهتهم ففشت تلك الكلمة فى الناس ، وأظهرها الشيطان حتى بلغت أرض الحبشة ومن بها من المسلمين .. فاقبلوا سراعا وقد نسخ الله ما ألقى الشيطان واحكم الله آياته وحفظه من الفرية .

قال ابن كثير : وقد ساق البغوى فى تفسير روايات مجموعة من كلام ابن عباس ، ومحمد بن كعب القرظى وغيرهما بنحو من ذلك ، ثم سأل هنا سؤالا : كيف وقع مثل هذا مع العصمة المضمونة من الله تعالى لرسوله ﷺ ثم حكى أجوبة عن الناس ، من ألطفها أن الشيطان أوقع فى مسامع المشركين ذلك ، فتوهموا أنه صدر عن رسول الله ﷺ وليس كذلك فى نفس الأمر بل إنما كان من صنيع الشيطان لا عن رسول الرحمن» .

وبعد أن نفى سيد قطب إمكانية حدوث ذلك وضعف الروايات قال : «إن الرسل عندما يكلفون حمل الرسالة إلى الناس ، يكون أحب شئ إلى نفوسهم أن يجتمع الناس على الدعوة ، وأن يدركوا الخير الذى جاءهم به من عند الله فيتبعوه . ولكن العقبات فى طريق الدعوات كثيرة والرسل بشر محدودو الأجل ، وهم يحسون هذا ويعلمونه . فيتمنون لو يجذبون الناس إلى دعوتهم بأسرع طريق . يودون مثلا لو هادنوا الناس فيما يعز على الناس أن يتركوه من

عادات وتقاليد وموروثات فيسكتوا عنها مؤقتا لعل الناس أن يفيئوا إلى الهدى .. ويودون مثلا لو جاروهم فى شئ يسير من رغبات نفوسهم رجاء استدراجهم إلى العقيدة ، على أمل أن تتم فيما بعد تربيتهم الصحيحة التى تطرد هذه الرغبات المألوفة ! ويجد الشيطان فى تلك الرغبات البشرية ، وفى بعض ما يترجم عنها من تصرفات أو كلمات فرصة للكيد للدعوة وتحويلها عن قواعدها والقاء الشبهات حولها فى النفوس ولكن الله يحول دون كيد الشيطان .. فيبطل الله كيد الشيطان ويحكم الله آياته .. فأما الذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم من الكفار المعاندين فيجدون فى مثل هذه الأحوال مادة للجدل واللجاج والشقاق (الظلال ٢٤٣١/٢٤٣٣) وهنا اندفع سيد قطب رحمة الله عليه يهاجم المجموعة المهادنة لعبد الناصر — دون أن يسميهم — وهى المجموعة التى انشقت على الهضيبى وكانت السبب فى تمزق الجماعة تحت ضربات عبد الناصر .

على أية حال ، لعلنا لاحظنا أن سيد قطب قد حوم حول تفسير ، يلقى الشيطان فى أمنيته ، ففسره بما لم نبعد نحن عنه كثيرا . ولو كانت القصة مرفوضة من اساسها فى قناعته ، ما كانت به حاجة لشرح رغبة الرسل فى مجاراة أو مهادنة قومهم ! وإلا فإن الآيات تتحدث عن أمنية ، مجرد أمنية بلا تحديد ، ولم تتحدث عن وفاق ولا مهادنة ، لكن الحادثة كانت فى خاطر سيد قطب وملحة عليه فراح يفسرها حتى وهو ينفيها ! وهو عناء لا نرى ولا رأى السلف مبررا له ولا حاجة إليه .

وتفسير القرطبى أنكر الروايات ولكنه قال : فيه ثلاث مسائل قوله تعالى تمنى أى قرأ وتلا . والقى الشيطان فى امنيته أى قراءته وتلاوته .. الأحاديث المروية فى نزول هذه الآية وليس منها شئ يصح . وكان مما تموه به الكفار على عوامهم قولهم : حق الأنبياء ألا يعجزوا عن شئ ، فلم لا يأتينا محمد بالعذاب وقد بالغنا فى عداوته ؟ وكانوا يقولون أيضا : ينبغى ألا يجرى عليهم سهو وغلط ، فبين الرب سبحانه أنهم بشر ، ويجوز على البشر السهو والنسيان والغلط إلى أن يحكم الله آياته وينسخ حيل الشيطان» وبعد ان عرض رواية الليث ورواية الواقدى وإنكار النحاس وابن عطية له قال : «قال ابن عطية .. ولا خلاف ان القاء الشيطان إنما هو الألفاظ مسموعة ، بها وقعت الفتنة ، ثم اختلف الناس فى صورة هذا الالقاء فالذى فى التفاسير ، وهو مشهور ، القول ان النبى ﷺ تكلمَ بتلك الألفاظ على لسانه وحدثنى أبى رضى الله عنه أنه لقى بالشرق من شيوخ العلماء والمتكلمين من قال : هذا لا يجوز على النبى ﷺ وهو معصوم فى التبليغ ، وإنما الأمر أن الشيطان نطق بلفظ أسمعه الكفار .. وقد روى نحو هذا التأويل عن الإمام ابى المعالى . وقيل الذى القى شيطان الإنس .. ثم أورد القرطبى رأى القاضى عياض فى كتاب الشفا .. وهو أن الأمة أجمعت فيما طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شئ بخلاف ما هو عليه ، لا قصدا ولا عمدا ولا سهوا وغلطا ..» .

ولكنه عاد فقال «إنه بفرض أنه صحيح .. الذى يظهر ويرجح فى تأويله على تسليمه أن النبى ﷺ كان كما أمره ربه يرتل القرآن ترتيلا ويفصل الآى تفصيلا فى قراءته ، كما روى الثقات عنه ، فيمكن

ترصد الشيطان لتلك السكتات ودسه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات ، محاكيا نغمة النبى ﷺ بحيث يسمعه من دنا إليه من الكفار فظنوها من قول النبى ﷺ واشاعوها ولم يقدح ذلك عند المسلمين لحفظ السورة قبل ذلك على ما أنزلها الله ، وتحقيقهم من حال النبى ﷺ فى ذم الأوثان وعيبها ما عرف منه فيكون ما روى من حزن النبى ﷺ لهذه الاشاعة والشبهة وسبب هذه الفتنة ، وقد قال الله تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى﴾ الآية

وعلق الإمام القرطبى : «وهذا التأويل أحسن ما قيل فى هذا . وقال سليمان بن حرب .. «فأخبر الله تعالى أن من سنته فى رسله وسيرته فى أنبيائه إذا قالوا عن الله تعالى زاد الشيطان فيه من قبل نفسه .. فهذا نص فى الشيطان انه زاد فى الذى قاله النبى ﷺ لا أن النبى ﷺ تكلم به ، إلى أن قال وما هُدى لهذا إلا الطبرى لجلالة قدره وصفاء فكره ...» «ومن قال جرى ذلك على لسانه سهوا قال : ولا يبعد أنه كان سمع الكلمتين من المشركين وكانتا على حفظه فجرى عند قراءة السورة ما كان فى حفظه سهوا ، وعلى هذا يجوز السهو عليهم ولا يقرون عليه ، وأنزل الله عز وجل هذه الآية تمهيدا لعذره وتسلية له لئلا يقال إنه رجع عن بعض قراءته وبين أن مثل هذا جرى على الأنبياء سهوا ، والسهو إنما ينتفى عن الله تعالى ، وقد قال ابن عباس : إن شيطانا يقال له الأبيض كان ..» ثم ختم الإمام القرطبى كلامه بتعليق كنا نود أن نطرحه نحن كسؤال وهو قوله : «وضعف الحديث مغن عن كل تأويل والحمد لله (ص٤٤٧٥/٦) .. نعم لماذا لم يغن ضعف الحديث ، القرطبى وغيره ، عن تأويله ؟!

أما ابن سعد وهو من الرواة والمؤرخين الثقات قال عنه ابن خلكان « كان صدوقا ثقة » وقال ابن حجر : أحد الحفاظ الكبار الثقات « فقد أورد القصة هكذا فى باب :

« ذكر سبب رجوع أصحاب النبى ، ﷺ ، من أرض الحبشة »

« أخبرنا محمد بن عمر قال : حدثنى يونس بن محمد بن فضالة الظفرى عن أبيه قال : وحدثنى كثير بن زيد عن المطلب بن عبد الله ابن حنطب قالا : رأى رسول الله ، ﷺ ، من قومه كفاً عنه ، فجلس خاليا فتمنى فقال : ليته لا ينزل علىّ شئ ينفرهم عنى ! وقارب رسول الله ﷺ قومه ودنا منهم ودنوا منه ، فجلس يوما مجلسا فى ناد من تلك الأندية حول الكعبة فقرأ عليهم : والنجم إذا هوى ، حتى إذا بلغ : أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، ألقى الشيطان كلمتين على لسانه : تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى ، فتكلم رسول الله ﷺ ، بهما ، ثم مضى فقرأ السورة كلها وسجد وسجد القوم جميعا ورفع الوليد بن المغيرة ترابا .. فرضوا بما تكلم به رسول الله ﷺ .. فكبر ذلك على رسول الله ﷺ ، من قولهم حتى جلس فى البيت ، فلما أمسى أتاه جبريل ، عليه السلام ، فعرض عليه السورة ، فقال جبريل (ما) جئتك بهاتين الكلمتين . فقال رسول الله ﷺ : قلت على الله ما لم يقل ، فأوحى الله إليه : ﴿وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذاً لاتخذوك خليلاً ، إلى قوله : ثم لا تجد لك علينا نصيراً﴾ .

« أخبرنا محمد بن عمر قال حدثنى محمد بن عبد الله عن الزهرى عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال : فشت تلك

السجدة فى الناس حتى بلغت أرض الحبشة ، فبلغ أصحاب رسول الله ، ﷺ ، أن أهل مكة قد سجدوا وأسلموا حتى إن الوليد بن المغيرة وأبا احيحة قد سجدا خلف النبى ، ﷺ ، فقال القوم : فمن بقى بمكة إذا أسلم هؤلاء ؟ وقالوا عشائرنا أحب الينا ، فخرجوا راجعين حتى إذا كانوا دون مكة بساعة من نهار ، لقوا ركبا من كنانة فسألوهم عن قريش وعن حالهم ، فقال الركب : ذكر محمد آلهتهم بخير فتابعه الملأ ، ثم ارتد عنها ، فعاد لشتم آلهتهم ، وعادوا له بالشر ، فتركناهم على ذلك .. فأتمر القوم فى الرجوع إلى أرض الحبشة .. الخ (السيرة النبوية من الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٠٦) .

على أية حال هذا ما وصل إليه ابن حجر ، ليس وحده . كما يوحى الشيخ بل وكبار المفسرين والرواة فى تمحيصهم للرواية ، التى كما نرى تناولها جل علماء المسلمين من الطبرى إلى الجلالين ، وكلهم رأوا أنه لابد من تأويلها رغم تضعيف بعضهم للسند لأنه كما قال ابن حجر لابد فى رواية تعددت مصادرها وشاعت حتى وصلت الحبشة ، وعبرت القرون ، لابد أن يكون للقضية أصل ، حتى وصلنا إلى الشيخ الذى أنكرها تماماً ونسبها إلى الفاسقين من غير ذوي العلم ولا التقوى بل للمبشرين .. الخ .

فنقول له : وهب أنك نجحت فى إخفاء رأسك فى رمال التكذيب والتشكيك وحملتها لابن حجر ولعنت ولعنا معك سلمان رشدى ثلاثا فماذا تفعل يامولانا فى صريح القرآن : ﴿وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذاً لاتخذوك خليلاً . ولولا

أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا . إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً﴾ الإسراء ــ ٧٥ .

ماذا تقول الآيات بلسان عربى مبين ؟

تقول :

أوشك المشركون أن يفتنوا الرسول لينسب إلى الوحى ما لم ينزل به الوحى ، ولو فعل ذلك لأحبوه وأعزوه واتخذوه خليلا .. (ألم يهم بها يوسف وهمت به ولاحظ أن القول الفصل استخدم نفس الفعل « هم » .. ثم عصم الله من عصم) .

وسواء صحت الرواية بأنه صلوات الله عليه قال فعلًا أو هم بالقول ، فإن الاغراء وقع والفتنة كادت .. والركون إلى باطلهم أوشك أن يقع .. ثم عصمه الله لأنه معصوم فى أمر الدين .. ولو لم يكن من دليل على نبوته ﷺ إلا هذه الواقعة لكفت برهاناً . فلو كان القرآن من عنده ، وحدثت الواقعة فى جانبها العلنى أو لم تحدث ، لاكتفى بحذفها وطواها النسيان . لأن هذه الآيات التى انتقدته صلوات الله عليه هى التى جعلت المحدثين والمؤرخين والكائدين يفتشون عن الواقعة ويضيفون إليها بعضا من الحقيقة والكثير من التخيل . لو كان هو الذى يؤلفه أو يفتريه من عنده ، ما كان أغناه عن هذه المشكلة من الاساس . فهذه الواقعة هى من أدلة صدقه ، وان القرآن ليس من عنده ، ولكن الانهيار الذى نعانيه يجعلنا نرى السوء فى الحسن كل الحسن ، وننهزم بذات عوامل ومقومات النصر !

ليس فى ديننا عورة ، ولست أناقش مدى صحة حديث (أو

بالأحرى رواية الغرانيق ، فهى ليست حديثا ، ولابد أن الشيخ يعرف خطأ الوهم الشائع عند العامة إذ يظنون أن كل ما ورد فى البخارى هو من كلام رسول الله نصا ، والحقيقة أن به الكثير من رواية الصحابة عن أحداث شاهدوها، فهو تاريخ موثق) لست أناقش تفاصيل الرواية وإنما أناقش القضية ذاتها .. أليس النبى بشرا عرضة لما يتعرض له البشر من ضعف وإغراء المصالحة والحرص على كسب أهله وعشيرته ، وتخفيف ما يعانيه أصحابه وهو الذى وصفه الله : ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ [التوبة ـ ١٢٨] .

فالرسول حريص على قومه يعز عليه عنتهم وما يجره هذا العنت عليهم من عذاب الآخرة ، وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم يتألم لما يتعرضون له من تعذيب وتشريد ، فماذا عليه إذا تمنى الوفاق ؟ وما محمد إذا انقطع عن الوحى الا بشر يخطىء ويصيب . ألم يخرج الشيطان آدم من الجنة . ﴿فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه﴾ [البقرة ـ ٣٦] .

نقول تمنى محمد مصالحة قومه لينقذهم من غضب الله وليخفف عن أصحابه المستضعفين ما يعانونه من العذاب على يد المشركين .. والله يقول :

﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى ، إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته﴾ .

﴿فينسخ الله ما يلقى الشيطان ، ثم يحكم الله آياته ، والله عليم حكيم ..﴾

﴿ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض ، والقاسية قلوبهم ، وإن الظالمين لفي شقاق بعيد﴾ .

﴿وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم ، وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾ .

﴿ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم﴾ . [الحج : ٥٢ ـ ٥٣ ـ ٥٤ ـ ٥٥] .

الله أكبر .. !!

والله لكأنها نزلت الساعة فى فتنة سلمان ومن أغواهم سلمان أو الذين أحرج إيمانهم فجور سلمان فراحوا يعاتبون ابن حجر أن قوى الشبهة عليهم ! ..

الله أكبر ! ماذا تُعلمنا الآيات ؟

١ ـــ ما من نبى إذا تمنى إلا ألقى الشيطان فى أمنيته .

فما الجديد وما المثير وما المشين ؟

تمنى محمد مصالحة قومه وألقى الشيطان فى أمنيته . بتفسير ابن عباس وبالتأويل الذى قبله الطبرى أى فى قراءته أو تلاوته . بصرف النظر عن الخلاف أو التخريج بأن الأمنية صدرت بصوت الشيطان أو على لسان النبى مع أن المسلمين الأوائل كانوا لا يشكون فى عصمة النبى ، ولكنهم يسلمون فى نفس الوقت ، ببشريته التى يجوز عليها ما قرره الله سبحانه وتعالى من حكم عام يشمل كل الأنبياء والرسل وهو استغلال الشيطان لأمنياتهم وإلقاؤه فيها وسوسته . وأغلب الظن أن علماء الكلام المتقدمين هم الذين جعلوا منها قضية بجدلهم فى قضية

العصمة ، وربما تحت تأثير المناقشات مع المسيحيين الذين اعتبروا عيسى إلهاً كاملا ، فكان بعض المتكلمين يحسون بالحرج فى التسليم بنقص محمد ﷺ لأنه بشر ، مع أن هذا هو إعجازه ودليل صدقه !

٢ ــ وهنا تتدخل السماء فينسخ الله ما يلقي الشيطان ، ثم يحكم الله آياته ، والله عليم حكيم .. فتعصم السماء الدين وتنأى به عن الشك ، فلا يثبت إلا المحكم من التنزيل . وهو ما حدث ، ليس سرا ولا باخفاء الأمر ، بل علنا ، ويتلوه الناس أبد الدهر دليلا على العصمة القرآنية . هذه العصمة التى تفرضها السماء وتتابعها وتحفظها حتى من أخطاء الرسل البشر .

٣ ــ وهذا الذى وقع أو يقع من كل الرسل الأنبياء بلا استثناء بمنطوق الآية هو من تدبير الله سبحانه وتعالى ، ليكون فتنة للذين فى قلوبهم مرض ، والقاسية قلوبهم ، نعم القاسية قلوبهم الذين يعجزون عن فهم حنان محمد الإنسان ورأفته ، فيتشامخون قائلين كيف يخطىء نبى ؟! كيف يرق قلبه للمشركين ، كيف تمنى مصالحتهم ؟!

قست قلوبهم فهى كالحجارة أو أشد قسوة ! نعم يرق البشر بل وتعتريه لحظات ضعف ، ويوشك أن يركن إليهم ولكن الوحى يعلم مصلحة الناس الحقيقية وأن اجبارهم على الحق الصريح هو الرحمة الحقة والدائمة حتى وإن مرت فترة انقسم فيها كل بيت على نفسه وتقاتل الاشقاء بل والآباء والابناء . الحق يعلم أن هذا الذى أنزله هو الرحمة الكاملة ، وأن ما يتعرض له بعض المسلمين بعض الوقت من العذاب والضيق ، هو الطريق للنعيم الخالد والسعة التى لا حد لها فى

الدنيا والآخرة ، فيحكم الله آياته ، فيمحو ما ألقاه الشيطان ويثبت القول الحق .

والآيات قد يفهم منها أيضا أن ليس للنبى أن يتمنى فى الدين لأن هذا يفتح بابا للشيطان وإنما هو يصدع بما يؤمر فقط .

٤ ـــ والنتيجة هى هذا الشقاق البعيد الذى يسقط فيه الظالمون بخلافهم وشكهم وتقولهم لعجزهم عن فهم حكمة الحادثة .

٥ ـــ ولكن هذا الضعف من البشر الرسول وفى نفس الوقت الكمال الذى تفرضه العصمة الإلهية هما الحجة التى يعرف بها أهل العلم أنه الحق من ربك فتطمئن له قلوبهم . إذ لو كان من عنده لبقيت فيه وسوسة الشيطان ، وتصالح مع قومه وركن إليهم واتخذوه خليلا ولكن ذلك لم يحدث بل أحكم الله آياته . وكانت الحرب العوان بينه وبين قومه حتى حكم الله بينهما بالحق ونصر دينه . أو كما قلنا ؛ لو كان يفتريه وغير رأيه لكتم القصة كلها وما حاجته لهذه الآيات التى خلدت القصة .. لولا هذه الآيات لاندثرت الرواية تماما ، إما بوفاة من سمعها ، أو برفض المسلمين أية إشارة إليها والتنكيل بمن يذكرها إذ ليس لها ـــ عندئذ ـــ ما يعززها . ولكن القرآن ليس من عند محمد ، وهو لا يملك أن يغير فيه حرفا أو ان يكتم ما وجه إليه من نقد عندما عبس وتولى أو عندما كتم ما فى نفسه أو عندما تمنى ؟!

فتأتى الآيات تدعم الواقعة ، وتثبت إيمان المؤمنين . لم يرتد مسلم واحد ، لا فى عصر النبى ، ولا فى ما تلاه من عصور ، أثبتت خلالها الحادثة ورويت ، وجادلوا فيها . ولم يشك أحد لعلو فهمهم وعمق إيمانهم ، حتى جاء جيل يشككه فى دينه مهرج هندى يليق بالسيرك لا الفكر !!

٦ — وقبل خمسة عشر قرنا أبلغنا المولى عز وجل أن الكافرين سيظلون فى مرية منه حتى تأتيهم الساعة.. صدق الله العظيم .. مازالوا فى مرية منه ..

٧ — وأخيرا .. أليس فى الحادثة عبرة للذين يتجشأون القول اليوم بأنه لا مانع من إقرار الكفر حماية للوحدة الوطنية !! أو ما أطال سيد قطب رحمة الله عليه ، فى استخراجه من خطأ مهادنة السلطة الكافرة !

رغم كل هذا الإعجاز فى حادثة الغرانيق إلا أن الشيخ انزعج منها وفر من هولها — كما قال المتنبى — إلى تكذيب الرواية ونسبها إلى الدس !! « أكذوبة الغرانيق لم يضعها مستشرقون وإنما وضعها ناس عندنا فقدوا الوعى والتقوى » (الغزالى ص ١٩٤) أتراه يقصد بهذا القول ابن حجر والطبرى والجلالين .. والآخرين الذين شكوا فى رواية بعينها ولكنهم بذلوا الجهد فى تأويلها ؟! أيمكن أن يتهم شيخ وداعية هؤلاء القمم بفقدان الوعى والتقوى أو على الاقل بالغفلة الشديدة التى تجعلهم يثبتون ويؤكدون أو يقوون رواية بهذا الحجم والأهمية ، مع أنها لم تخف على الشيخ الذى عرف من مجرد النظر وعلى بعد خمسة عشر قرنا أنها فرية قوم افتقدوا الوعى والتقوى ؟! .. وكيف يكون لكل ما كتبوا أية قيمة بعد ذلك ؟!

وعاد الشيخ فهاجم كاهنا يثير قضية الغرانيق فقال : «إنها من وضع آبائك أيها المسكين لا من عند محمد .. فإن الله نزل على محمد هذه الآيات : ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾ [الحاقة : ٤٤ — ٤٧] .

إن محمدا لا ينقل عن الله إلا الحق كما جاء فى سورة أخرى : ﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل﴾ [الإسراء – ١٠٥] .

يبدو أن الشيخ يناقش تصورا بعينه للرواية .

أولا بالحق أنزلناه وبالحق نزل .. حقا وصدقا . ما نزل هو ما فى القرآن الذى ليس فيه كلمة واحدة محل شك . ونحن لدينا روايات ، لا أدرى ما موقف الشيخ منها عن فاسق كان يكتب الوحي فيحرف فى بعض الآيات وهذه أخرى من الأقاصيص التى استند إليها سلمان رشدى فى روايته ومن قبله عشرات الوعول التى حاولت أن تنطح صخرة الإسلام ، ولكن الذى تعهد بحفظ القرآن نبه رسوله لذلك ومحا أثر ما فعله الفاسق ، وقد كان جبريل يستعرض القرآن كل سنة مرة مع النبى ، تنزيلا بارادة المولى عز وجل فى النسخ والرفع وترتيب السور والآيات ، وتنفيذا لإعجاز الحفظ ، وتتبعا لما هو من طبيعة الإنسان فى السهو واخطاء النسخ ، وحسبك من مراجعة يجريها جبريل ، فهو بالحق أنزله وبالحق نزل . والغرانيق ليست فى القرآن ولا نزلت من عند الله . وكما قلنا هى من أدلة مصداقية الحفظ ومصداقية التنزيل وإلا لما اكتشفت أو لما ذكرت على الاطلاق ، ولا ورد فى المصحف الآيات التى اشرنا إليها عن تمنيه ، وكدت تركن إليهم .

أما عن الآيات التى استشهد بها الشيخ ضد الكاهن .. «ولو تقول علينا لأخذنا منه باليمين» .

الرسول لم يتقول بل تمنى مثل كل الأنبياء والرسل كما جاء النص القاطع الذى استشهدنا به وفرق لا يخفى على الشيخ بين التقول ، وما

فيه من تعمد، وبين إلقاء الشيطان فى أمنيته أو على لسانه أو حتى فى خاطره .

وإذا جاز لى أن أتخيل لقلت إن الرسول الذى ، كما قلنا ، كان يشغل باله مصير قومه ، من المشركين وصحبه من المؤمنين .. كان وهو يتلو القرآن على نفسه ، يفكر فى مخرج ، وفيما عرضوه عليه من مصالحة لو أنه اعترف بمكانة ما لآلهتهم .. وكما يحدث عندما يستغرق الانسان فى التفكير والتلاوة معاً ، يحدث أن يفكر بصوت مسموع ، فنطق هذه الأمنية التى ألقاها الشيطان فى أمنيته ، فسمعها من لا يعقل فظنها إعلاناً من محمد قرآنا أو بياناً فهرع يهنىء من يعنيه الأمر بل وطار النبأ إلى الحبشة .. فالتفكير أو الأمنية حدثت ، والركون إليهم أوشك أو كاد أن يقع ولو فى الخاطر، وبعض القول صدر ، ولكن الرسول لم يتقول ، لم يقل لهم : هذا قرآن أنزل علىّ . ثم ما إن تدخلت السماء حتى حسم الأمر وصدع الرسول بما أنزل عليه وحفظ النص القرآنى من تقول الذين اختطفوا القول ..

ثم إليك ما جاء فى تفسير الجلالين ..

(تمنى/ قرأ، ألقى الشيطان فى أمنيته/ قراءته ماليس من القرآن مما يرضاه المرسل إليهم وقد قرأ النبى ﷺ ، فى سورة النجم فى مجلس من قريش بعد «أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى» ــ بالقاء الشيطان على لسانه من غير علمه ﷺ به : تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى ، ففرحوا بذلك ثم أخبره جبريل بما ألقاه الشيطان على لسانه من ذلك ، فحزن ، فسلى بهذه الآية ليطمئن . فينسخ الله/ يبطل ما يلقى الشيطان . ثم يحكم الله آياته/ يثبتها . والله عليم/ بالقاء

الشيطان ما ذكر . حكيم/ أى فى تمكينه منه بفعل ما يشاء . ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة/ محنة . للذين فى قلوبهم مرض/ شقاق ونفاق . والقاسية قلوبهم/ أى المشركين عن قبول الحق. وإن الظالمين/ الكافرين . لفى شقاق بعيد/ خلاف طويل مع النبى ﷺ والمؤمنين حيث جرى على لسانهم ذكر آلهتهم بما يرضيهم ، ثم أبطل ذلك . وليعلم الذين أوتوا العلم/ التوحيد والقرآن . أنه/ أى القرآن . الحق من ربك/ فيؤمنوا به . فتخبت/ تطمئن له قلوبهم . وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط / طريق مستقيم / أى دين الإسلام . ولا يزال الذين كفروا فى مرية / شك . منه / أى القرآن بما ألقاه الشيطان على لسان النبى ثم أبطل . حتى تأتيهم الساعة بغته / أى ساعة موتهم أو القيامة فجأة . أو يأتيهم عذاب يوم عقيم / هو يوم بدر . لا خيار فيه للكفار كالريح العقيم التى لاتأتى بخير ، أو هو يوم القيامة لاليل بعده).

صدق الشيخان .. فلماذا خبتت قلوبهم وسقط الآخرون فى الشقاق والمرية ؟ !

ثم تعال إلى هذه التهويشة التى أثارها فتاه ، حول سلمان رشدى .. ترى من الذى يأخذ بمنطق سلمان ومن سبقوه ، ويعزز حجتهم .. نحن أم المذعور الذى يفر بإنكارها ؟

جوهر دعوى سلمان : لأن محمد بن عبد الله تمنى وألقى الشيطان فى قوله فهو لا يمكن أن يكون نبياً .. وجوهر ادعاء الشيخ هو نفس القضية ولكن بالمقلوب .. لأن محمد بن عبد الله نبى فلا يمكن أن تقع له هذه الواقعة ! فالشيخ سلم بفرضية سلمان ومن سبقوه .. وأنكر هو وقوع الحادثة بينما أيد الآخرون دعواهم بكل ماأشرنا إليه من

روايات الأقدمين ، الأرجح فى أى ميزان عن الشيخ وفتاه .. وأهم من ذلك كله صريح الآيات .. فيسقط نفى الشيخ ويبقى تعزيزه للفرضية الكافرة .. فالشيخ إنما يعزز دعوى سلمان . أما نحن والسلف الصالح من قبلنا وصريح الآيات من فوقنا فتنسف هذه الدعوى تماماً لأننا ننطلق من قوله تعالى : لأنه نبى وقعت له هذه الواقعة . لأن النبى بشر فإذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ! وذلك قانون عام فى كل الأنبياء ، وهذا ماتثبته كل الكتب المقدسة .

شيخنا .. قد كان الظن بك أكبر من ذلك فحسبنا الله ونعم الوكيل ..

إذا تتبعنا الكتاب الذى راج وذاع وتلقفته وطنطنت به دوائر لم تعرف ـ يوماً ـ بمحبتها للسنة ، فسنفاجأ بعبارات ماكنت أحب أبداً أن تصدر عن الشيخ مثل قوله : «الدين البدوى» أو «وانتشر الفقه البدوى ، والتصور الطفولى للعقائد والشرائع .» أو «وقد بلغنى أن بدوياً ..» أو : «لسنا مكلفين بنقل تقاليد عبس وذبيان إلى أمريكا واستراليا ، إننا مكلفون بنقل الإسلام وحسب» .

فهذه التعبيرات شديدة الشبه بتخرصات المغرضين الذين يتحدثون عن فقه النفط وإسلام النفط والصحوة النفطية .. إلى آخر ما تخرصوا من مبتذل القول . لا يمكن أن يتحدث المسلم عن فقه بدوى وآخر حضرى ! وإنما هى قولة شاعر مقهور مغلوب أفحمته جزالة شعر منافسه فدافع عن نفسه بقولة : «هذا شعر حجازى مقرور لو تعرض لبرد الشام لمات !» ولا يليق أن ننقل هذر القول فى الشعر إلى الفقه والدين !

هؤلاء البدو هم الذين حملوا الدين للمدن والعواصم وحملونا عليه بسلوكهم وجهادهم .. والشيخ قد درس ودرّس ذلك فى ما سبق من عمره ، بل لقد بقيت بقية من هذا الحق فى ذاكرة الشيخ ، فهو يقول فى صفحات أخر من كتابه : «إن البدوى الذى خاطب الفرس أيام الفتح الأول قال لهم : جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد .. ويعلق : «كان هذا البدوى بفطرته الصادقة يعلم ما هى الحقائق الكبرى فى المنهاج الإسلامى فيفتح البصائر عليها» .

صدقت ! فأين نقلك من قولك ..

تقاليد عبس وذبيان هى التى نشرت الإسلام فى ربوع الأرض وجعلت أمثالنا يحلمون بنقله إلى أمريكا واستراليا .. هم نقلوا ونحن نحلم .

لأن تقاليدهم كانت أفضل وأقدر على حمل الحق والذود عنه .

انتصر الإسلام وعبر القارات ، لأن الذين حملوه للعالم هم ابطال عبس وذبيان .. ووصلنا إلى ما نحن فيه لما خجلنا من تقاليد أسلافنا الذين اختارهم الله من دون سائر البشر لنقل رسالته ..

وماذا تأخذ يا شيخنا على تقاليد عبس فى معاملة المرأة ، وتخجل أن تطالع بها أهل أمريكا واستراليا ؟ !

لحسن الحظ فقد حفظ لنا التاريخ اسم عبد وحبيبته عاشا فى بنى عبس فى القرن السادس الميلادى ، فهل لديك اسم امرأة وشاعر من عامة الناس ، لاأقول فى أمريكا واستراليا فى القرن السادس فما أنا بالذى يسأل الناس شططاً ، ولكن فى بريطانيا ذاتها التى انبثقت منها حضارة أمريكا واستراليا .. هل فى تاريخ بريطانيا حتى القرن التاسع عشر قصة حب بين أميرة أو نبيلة بنت سيد قومها ، وعبد أو حتى حر ولكن من عامة الناس ؟

فى بريطانيا عندما خادن الجناينى ربة القصر فى قصة خيالية هى «عشيق اللادى تشاترلى» التى نشرت فى القرن العشرين ، ذهبت مثلاً وظلت مصادرة ربع قرن حتى لا تهان قيم المجتمع البريطانى !

هل فى تاريخ بريطانيا قصة عبد نبغ بأدبه وشجاعته ، فنشر قصيدته على الكعبة وتزوج بنت سيد القوم ، وحفر اسمه على جبين الزمن يتغنى بسيرته وشعره بعد أربعة عشر قرناً .. ؟ أنخجل أن نحمل هذه التقاليد إلى استراليا ؟ !

اتق الله أيها المسلم ، كائنا من كنت ، واسترجع ثقتك بتاريخك ودينك وحدثهم عن عنتر وعبلة .

ألا ترى يا شيخ ما جرتك إليه شهوة نقد البدو ، وخيلاء ادعاء التحرر من تأثير البدو حتى قلت مستنكراً « كأن الكرة الأرضية هى نجد وتهامة والحجاز !! » (الغزالى ص٣٣) .

سبحان الله ! لو غيرك قالها ! نعم والله هى الدنيا : نجد وتهامة والحجاز .. هكذا رآها الله سبحانه وتعالى فاختارها لدينه ، واختار أهلها دون سائر الناس لاحتضان هذا الدين ونشره فى الدنيا ، فبعث فيهم النبى الأمى الأمين ، ولو شاء لنزله على رجل من القريتين عظيم أو لبعثه فى المدائن أو فى القسطنطينية أو فى الاسكندرية حيث الدنيا أجمل وأبهج وأبرح ، وحيث الحضارة أقدم . ولكن الله أعلم حيث يجعل رسالته .. ولو تأمل الشيخ ما نسبه لتأثير الحجاز ونجد على وضع المرأة ، لوجد أن هذا الذى أغضبه ، دخيل على حضارة العرب ويعود فى ـير منه لتأثير الأعاجم الذين لا ينتقدهم الشيخ بحرف ، أو للتخلف . وإلا فأين فى أى بلد أو عصر حتى القرن العشرين تجمع هذا العدد من النساء الخالدات الذكر ، مثلما تجمع فى جزيرة العرب عشية وفجر الإسلام . من عائشة التى أمرنا أن نأخذ عنها نصف ديننا إلى هند آكلة الأكباد . أين فى شتى الحضارات والعقائد ، تحققت

مكانة لامرأة مثل ماوصلت إليه ، عائشة رضى الله عنها.. هل فى الماركسية امرأة مثل عائشة فى الإسلام ؟ !

على أية حال لقد أثبت البدو أنهم أرحب صدراً وأقرب إلى أن يعدلوا فمنحوا الشيخ الجائزة !

ثم ماهذه الحملة على العرب التى يعرف الشيخ أنها نشطة فى هذه الأيام ، يردد دعاتها كلمة حق يراد بها باطل، وهى قول الشيخ إن الإسلام ليس دينا اقليميا لكم وحدكم ، إن لكم فقها بدوياً ضيق النطاق !! (الغزالى ص ٩١) .

وقد سمعت الشيوعيين والمتفرنسين من أدعياء الإسلامية، يحاربون تعلم اللغة العربية فى شمال افريقيا ، بدعوى أن الإسلام لم ينزل للعرب خاصة ، وليس من شروطه تعلم العربية ! وقد نشطت هذه الحملة فى السنوات الأخيرة وهبت علينا من حيث يعلم الشيخ . ومع ذلك فكتابه لا يرى نقيصة أو يسوءه خلق أو مسلك إلا نسبه فوراً للعرب ! فالجلباب زى عربى ، والأكل عادة عربية ، والاستنجاء عادة عربية ..

ولست أريد أن أناقش هنا قضية القومية التى زاد فيها اللغط أخيراً، وفاض وعم حتى بلبل وأكرب وجلب الهم والغم .. لن أناقش الذين أصبحوا يهاجمون العروبة ويسخرون من القومية العربية ، ويستنكرون التعلق بالوطن أو مايسمونه التراب ! وهم يعملون عن وعى أو جهل لمصلحة قومية أخرى تريد القضاء على قوميتهم واستلاب أوطانهم !

يرتكبون نفس خطيئة الشيوعيين عندما جعلوا النظام أعز من التراب أو الوطن ، عندما وقفوا مع روسيا الاشتراكية ضد أوطانهم الرأسمالية أو عندما أيدوا إسرائيل « التقدمية » ضد أوطانهم وقوميتهم العربية « الرجعية » .

أقول ، ما كنت أرغب فى مناقشة قضية القومية فقد قلت فيها وفى علاقتها بالدين مالا مزيد عليه وذلك فى كتابى « القومية والغزو الفكرى » الذى صدر من ٢٣ سنة .. وإنما أضيف بعض ملاحظات بعد أن خاض الشيخ فى وحل التنكر للعرب فأقول :

إن إنكار القومية والزعم بأنها تتنافى مع الإسلام والسخرية من التعلق بالتراب ، دعوة توشك أن تفضى بالإسلاميين إلى مأزق شديد الخطورة .. نفس المأزق الذى سقط فيه الشيوعيون عالمياً وبالذات عربياً فى أزمة فلسطين ، عندما رجحوا انتماءهم الأيديولوجى على انتمائهم الوطنى أو جعلوا المذهب يتقدم على التراب .. فخسروا الاثنين .. وخرجوا بتهمة الخيانة التى مازالت تطاردهم إلي اليوم .

القوميات هى الحقيقة الراسخة فى تاريخ البشرية . وهى الأساس فى انقسام الناس إلى شعوب وقبائل ليتعارفوا ، وهى القوة المحركة لما يجرى اليوم فى العالم من أحداث نقف متفرجين عليها ، عاجزين عن الفهم ، تتربص بنا القوميات ، ونفزع نحن من تعاظم دور القوميات ، أما نحن فنتنكر أو ننكر قوميتنا ، تارة باسم الأممية الشيوعية ، وتارة باسم الأممية الإسلامية .

الإسلام لا يعادى ولا ينافر حقائق الحياة والتاريخ وإنما يرتفع بها . فالإسلام يقر العربى عربياً والفارسى فارسياً . ولكن لا يرى فضلاً لأحدهما على الآخر إلا بالتقوى .. الإسلام هو الفلسفة والروح والرابطة والاطار والخلق الذى يحقق تعاون وتعايش القوميات فى ظل وحدة حضارية تقوم على تعدد القوميات وتمنع تحولها إلى شوفينية أو شعوبية متعادية .

الشوفينية هى التى تجعل أمتين عظيمتين ، صنعتا معاً واحدة من أجمل صفحات التاريخ ، تجعلهما تتنازعان على اسم خليج .. أما الإسلام فهو الذى لم يثر هذا الأمر لأكثر من ألف سنة بل جعل العرب يسمونه الخليج الفارسى لأنه يفضى إلى فارس ، والعكس من الجانب الآخر ، والإسلام اليوم هو الذى يمكنهما من حل هذا المشكل بتسميته الخليج الإسلامى . ولكنهما لا يفعلان .

والقوميات لابد لها من أيديولوجية أو صيغة حضارية تعبر بها عن نفسها ؛ وكل قومية تلعب أو تطمح أن تلعب دوراً إقليمياً أو عالمياً ، لابد لها من رسالة أيديولوجية تعبر عن ذاتها وتخاطب بها الآخرين فى نفس الوقت .. وهذه الأيديولوجية قد تبدأ من قومية بعينها وتكون فى فترة من الفترات معبرة عن مصالح هذه القومية ، ورسالتها الحضارية للعالم ، والذى يحدث عادة هو تجمع عدة قوميات فى اطار حضارى واحد يقوم على هذه الأيديولوجية أو الرسالة . وهذه الرسالة تتباين فى الوسائل والأهداف والنتائج المتحققة . فهناك مثلاً الأيديولوجية الامبراطورية حيث يجرى قمع القوميات الأخرى لحساب القومية صاحبة الرسالة .. كما حدث فى الحضارة الهيلينية

والإمبراطورية الرومانية والفارسية وروسيا الأرثوذكسية ثم روسيا الماركسية . والإمبراطوريات الغربية الأوروبية والأمريكية التى قامت على المسيحية الغربية ورسالة الإنسان الأبيض . أما فى حالة الإسلام فقد قام « متحد » من نوع خاص لم ينف القوميات ولا استنكرها ، كما يتصور المشتبه عليهم ، وإنما اعترف بها ووفر لها كلها أقصى درجات المساواة الممكنة . وخفف حدة تصادمها وأثرى تفاعلها وأحل الفكر فى تنافسها محل السلاح . فظهر التراشق بالشعر والنثر والتفاخر بهما ، كما حدث فى مرحلة ازدهار الحضارة الإسلامية بين العرب والفرس فيما سمى فى الأدب الإسلامى بالشعوبية .. أو التنافس فى التفوق العلمى والفقهى واللغوي حتى يضع أعجمى ، قواعد اللغة العربية ، ويصبح أهم مرجع لحديث النبى العربى من وضع أعجمى ، ولا يجد عربى غضاضة فى ذلك .

فالإسلام كان أفضل الأيديولوجيات فى تحقيق الرسالات العالمية ، بما كفله من مساواة بين قومياته المتعددة وما وفره لكل قومية من فرص بعث وتنمية وتطوير لثقافتها الخاصة ، ولما تحقق فى ظله من تفاعل وإخصاب بين هذه القوميات والثقافات فى ثقافة إسلامية واحدة . حتى إنه يمكن القول بأن جميع هذه القوميات بلا استثناء قد مثلت فى السلطة ووصلت على نحو أو آخر إلى أعلى مراتب هذه السلطة ، وحتى إن سائر القوميات التى فتح العرب بلادها احتلت حجماً فى الحضارة الإسلامية ، يضارع إن لم يتفوق على حجم العرب .. ولا يجوز أن ينطلى علينا مكر الشعوبية الجديدة التى تهاجم حكم بنى أمية بزعم أنه كان يمثل سيطرة العرب ويتنافى مع المساواة

التى جاء بها الإسلام .. تلك المساواة التى لم تتحقق أو ترجع ـ فى زعمهم ـ إلا بسيوف من كانوا يتنادون بذبح كل عربى جاوز الشبر !!

إن لعن بنى أمية أصبح مطية لكل ذوى الأهواء والأغراض . ودولة بنى أمية هى أبرز صفحات حضارتنا العربية ، وهى التى نشرت الإسلام فى ثلاث قارات ، وإن لم تكن دولتهم بالتأكيد ، فى طهارة ونبل حكم الراشدين ، ولكن تلك قضية بعيدة كل البعد عن تخرصات الشعوبيين الجدد .. وعن اتهاماتهم لبنى أمية بأنهم كانوا يعتمدون على العنصر العربى فى حكم الدولة الإسلامية الشاسعة الأرجاء .. والتى لم تتوحد إلا فى ظل بنى أمية .. ماأعجبه من افتراء ! لقد حكم بنو أمية مائة عام .. هى سنوات الفتح والاخضاع والتطويع ، فعلى من كانوا سيعتمدون فى إقامة الدولة وفرض النظام الجديد .. على الطبقة المخلوعة التى كانت فى السلطة بالأمس .. أم على العرب الفاتحين والحاملين لرسالة الإسلام ؟ !

هذه الطبقات المخلوعة حتى وإن قلنا إنها تخلت عن أحقادها وأطماعها فى استرداد ملكها .. حتى لو قبلنا أن هذه الأجيال الحديثة العهد بالفتح والهزيمة والاذلال قد شرحت قلبها للإسلام .. وأخلصت له .. ربما .. ولكنها لم تكن قد تشربت بعد ، روح مبادئه . وهى لو حكمت فإنها ستعيد أساليب الأكاسرة والدهاقنة ، ولكن باسم الإسلام .. الأمر الذى كان سيدفع رعاياها لا للثورة على الحكومة وحدها بل وعلى الإسلام ! كان الحكم العربى الأموى ضرورة من كل النواحى لاستقرار حضارة الإسلام ، وترسيخ قيمها ، وتألق هذه

القيم . وما ظهر فى ظل الحكم الأموى من كفاءات ورياسات ، من غير العرب هو أصدق دليل ، على تهافت اتهام الأمويين بالشوفينية أو اضطهاد غير العرب .. وتذكروا من فتح أوروبا ؟ ! ثم حقيقة أن الموالى لعبوا الدور الأول فى إسقاط الحكم الأموى .. كلها شاهد على أن غير العرب ماكانوا مضطهدين ولا مقهورين ولا ممنوعين من التطور والمشاركة فى حدود الضرورات لدولة فى مرحلة الفتح والاستقرار ..

أتمنى على غير ذوي الأهواء، أن يراجعوا أنفسهم ألف مرة، قبل الانسياق فى الحملة على الأمويين ، وليسألوا أنفسهم : هل الحكم الذى قام بعدهم كان أفضل من حكمهم ؟ ! ألا يعنى هذا السب للأمويين ، نفى التاريخ الإسلامي كله إلا فترة الراشدين ؟ ! هل تخلى أحد عن مبدأ الوراثة فى دولة العباسيين أو ماقام من دول الشيعة وشتى دول الإسلام ؟ !

لماذا ننسى أن أول من ورث الخلافة بعد أبيه هو الحسن بن على وليس يزيد بن معاوية ؟ !

كل هذا لا يمنعنا من القول بأن الإسلام فى ظهوره كان معبراً عن مصالح واحتياجات الأمة العربية .. كان الإجابة الأكثر من ناجحة ، على التحدى الذى واجه هذه الأمة العربية .. ولعلنا نذكر أن النبى ﷺ قد وُلِد عام الفيل .. العام الذى واجهت فيه هذه الأمة العربية أخطر تحديات عمرها ، منذ أن وجدت إلي اليوم ، فلأول مرة ــ ولآخر مرة بإذن الله ــ يصل جيش معاد إلى مشارف مكة وبهدف

دك أقدس أقداسها وأحرم حرماتها .. وجاء الانقاذ العاجل فى مناقير «طير أبابيل» .. وجاء الانقاذ الدائم بمولده ﷺ ، الذى لم يبعد الخطر الحبشى فحسب بل وخطر سادتهم البيزنطيين إلى الأبد ، من جزيرة العرب .. ولا ننسى أن العرب قد نصروا أيضاً فى صدامهم مع الفرس فى واقعة «ذى قار» ببركة رسول الله .. والرسول هو الذى قال ذلك .. «وبى نصروا» .. ولو أخذنا بمنطق إسلاميى العصر الحاضر ، لما فهمنا معنى أن ينصر مشركون يعبدون الأصنام ببركة رسول الله ، على مشركين يعبدون النار.. ؟ فما دخل رسول التوحيد بانتصار أو هزيمة العرب المشركين ؟ أم كفاركم خير من كفارهم ؟ ! وهل يجوز أن يتساءل مسلم لماذا يزهو الرسول صلوات الله عليه بنصر التراب أو العصبية الجاهلية ؟ ! حاشا لله ! وإنما هو الوطن .. ولا عقيدة ولا رسالة لمن لا يهتم بمصير وطنه .. ولماذا لا تحمل الرسالة الخير للوطن أول ما تحمل ، ومنه ينبثق الخير للناس جميعاً ؟ !

والحمد لله .. فإن التاريخ الإسلامى لم يتركنا هملاً يغرر بنا الجاهلون .. ويغرر بهم الشعوبيون الجدد.. بل حفظ لنا التاريخ من وقائعه ما يهدى من يريد أن يهتدى .. ففى غزو الحبشة لجزيرة العرب كان الأحباش مسيحيين .. وكان العرب مشركين وثنيين .. وبالتالى كان الأحباش على الدين الأقرب للصحة .. ورغم ذلك فإن أبا رغال ، العربى الذى انضم للأحباش ضد قومه المشركين ، مازلنا نرجم قبره إلى اليوم ، لأن خيانة الوطن كفر بواح ..

(قال ابن إسحاق .. فبعثوا معه أبا رغال يدله على الطريق إلى مكة

فخرج أبرهة ومعه أبو رغال حتى أنزله المغمس فلما أنزله به مات أبو رغال هناك ، فرجمت قبره العرب فهو القبر الذى يرجمه الناس بالمغمس ــ من سيرة ابن هشام) ..

وكنت قد نشرت كتابى القومية والغزو الفكرى عام ١٩٦٦ وأعتقد أن الكثيرين من المثقفين الإيرانيين قد اطلعوا عليه .. فى ذلك الكتاب شرحت كيف يمكن أن يقوم الإسلام مرة أخرى بدور الباعث والمحرك والملهم للقومية .. وفيه قصرت حديثى بالطبع ، على القومية العربية ، فهى كانت مادة بحثى وموضوع اهتمامى .. واعتبرت نفسى مسئولاً عن سد ثغورها الفكرية .. وقتها قلت إن الإسلام هو جوهر القومية العربية والقادر على بعثها ، إذا مااعتبره القوميون العرب تاريخياً جوهر حضارتهم ، ومستقبلياً جوهر رسالتهم الحضارية للعالم ، وعنصر اللقاء والتآخى بينهم وبين القوميات الإسلامية الأخرى .. كان كتابى أملاً منى فى أن يكون نظرية ومنهاجاً للبعث العربى .. وكما يحدث دائماً عبر التاريخ فقد شهدت هذه النظرية وذلك المنهاج تطبيقاً رائعاً ولكن .. على الجانب الآخر من الخليج .. فقد طبقه الإيرانيون بالنسبة لقوميتهم الفارسية فى محاولة بعثها وتحقيق ثورتها .. إن كل محاولات الشاه والمستغربين لبعث قومية فارسية على الطراز الغربى باءت بالفشل .. داخلياً وخارجياً . فلا كسبوا الجماهير أو المثقفين الإيرانيين ، إلى مشروعهم القومى المستغرب ، ولا استطاعوا توظيف الشيعة عربياً وعالمياً لخدمة الدولة الإيرانية .. بل على العكس كان شيعة العراق والمحرق أشد العرب عروبة وأكثرهم نفوراً من النفوذ الشاهنشاهى .. حتى تبنى

الإيرانيون الصيغة التى طرحتها أنا ــ عبثاً ــ على المفكرين العرب ، ولكل أمر ميقاته ومكانه . قاتل الإيرانيون ثورتهم القومية تحت لواء الإسلام .. فالتفت حولهم جماهير إيران وبذلت الدم فى سبيل نجاح ثورتهم ، كما كسبوا تأييداً فى الخارج باسم الرسالة .. وساعدهم وجود مذهب خاص بقوميتهم ، هو الإسلام الشيعى بصيغته الصفوية .. وهذا المذهب اعتنق فى إيران ، لمواجهة النفوذ العثمانى السنى . ومن ثم فقد أعيد بعثه لتحقيق الثورة القومية الإيرانية . وقد رأينا ــ ولم ندهش ــ مفكرين إيرانيين علمانيين ، بل أكاد أقول ماركسيين ملاحدة ، ولكنهم شيعة ، يتبنون ويدافعون بحماسة عن المذهب الشيعى وممارساته ، لأنهم وعوا أن المذهب هو الايديولوجية لقوميتهم ورسالتها .

نجح الفرس فى رفع لواء الإسلام الشيعى، وقدموه على دعوى القومية ، فنصروا الاثنين وفى نفس الوقت جندوا الايديولوجيات لصالح القومية . واستطاعوا أن يقمعوا به الحركات الانفصالية فى إيران . فتلك القوميات لم تعد مجرد متمردة على الوحدة الوطنية ، ولا حتى خائنة للوطن .. بل كافرة رافضة لحكم الإسلام .. تشاقق الله ورسوله وتسعى فى الأرض فساداً .. وحكم الله واضح فى المفسدين فى الأرض وجند الله من الحرس الوطنى ينفذون حكم الله بلا تردد فى المفسد العربى أو الكردى أو التركى أو البلوشى .. الذى يدعو بدعوى الجاهلية من أحساب وأنساب وقوميات ويرفض تسمية الخليج بالخليج الفارسى .. أو يرفع «كلمة حق يراد بها باطل» !! مثل الدعوة لتسميته بالخليج الإسلامى !! ولم يقتصر نجاح القومية الشيعية

على الداخل بل سرعان ما جندت شيعة الخارج الذين اندفعوا بحماسة وطيب خاطر يستشهدون فى العمل ضد حكوماتهم وأحياناً ضد التراب فى سبيل نصرة دولة الإسلام .. ولم يقتصر الأمر على الشيعة ، بل نجحت أجهزة المخابرات الإسلامية الإيرانية فى تجنيد العديد من الحركات الإسلامية حتى العربية لتقف مع الجيش الإيرانى فى حربه مع العرب العراقيين .

وهذا حديث طويل وما يعنينا الآن فى هذا المبحث ، هو البحث عن الصيغة التى تحقق التضامن الإسلامى ووحدة الحضارة الإسلامية ، مع الاعتراف بحقائق الواقع وضروراته .. لأن إنكار الواقع والإصرار على المحال هو حرث فى البحر وحرب طواحين ، ومبعث للتوجس وإثارة العداوات وتعميق للفرقة وفتح الباب للتدخل الأجنبى .. وبهذه المناسبة نشير إلى حقيقة أننا لسنا أكثر من تلاميذ لنابغة المسلمين فى العصر الحديث أو فى عصر القوميات ، جمال الدين الأفغانى الذى توصل لهذا الفهم منذ أكثر من مائة عام ، عندما دعا للجامعة الإسلامية وقال إنها لاتعنى إلغاء الكيانات القائمة .. بل « يبقى كل أمير على دسته » ولا أظننا سنصل إلى تعبير أفضل .. كما لا أظن أننا سنبتعد عن مفهومه كثيراً إذا ما قلنا : بل تبقى كل حكومة إسلامية على دستها القومى .

فإذا عدنا لحديث الشيخ نجده يتساءل : « هل البديل الأفضل جلباب قصير ولحية كثة؟ ! » (ص ٨) .

وقبله سخر المتنبى فأوجع عندما قال عن المصريين : أغاية الدين أن تحفوا شواربكم ياأمة ضحكت من جهلها الأمم ..

ومع ذلك فلنا وللشيخ الأبحاث المطولة على أهمية هذا التميز ، ولا أحد سخر من طاقية اليهود التى يحرصون عليها . كما لم يقل أحد إن كل هذه الخرافات التى فى التوراة قد عرقلت أو عاقت قوتهم وتقدمهم . ولماذا يصر الشيخ على العمامة إلى اليوم ؟ وكذلك يوجع فؤاد الشيخ «أن بعض الشباب كان يهتم بهذه المسألة : هل لمس المرأة ينقض الوضوء أم لا؟!» .

لماذا لم يوجع قلب حاخامات إسرائيل أن يتساءل جنودها عشية انتصارهم فى ٦٧ هل يجوز تسخين الطعام يوم السبت أم يوزع التعيين بارداً لأن التوراة تحرم عليهم إشعال النار فى يوم السبت ! وهل التسخين بالميكرويف يعد إشعالاً للنار؟! بل وأن يتأخر استدعاء الاحتياط إلى أن تغرب شمس يوم السبت لأنه لا يجوز أن تسير فيه السيارات ، أو مشكلة طائرات العال التى تطالب الأحزاب الدينية بوقف سيرها يوم السبت.. !! أو المباحثات المملة القاسية مع الحكومة المصرية لمنع نقل جثث اليهود لأنه خطية فى دينهم !! بينما بذل الشيخ جهداً لا مبرر له فى السخرية من حديث دفن سيدنا موسى بالقرب من فلسطين !

لماذا لم يسخر كهنتهم من تلك القضايا .. واأسفاه !! هل انضم الشيخ لطابور العصرانيين الذين يتمسكون بالقشور ويزعمون أنها سبب تخلفنا .. !!

والشيخ ينكر على الشباب اهتمامهم بالتوافه «وبيضة الإسلام مستباحة» لكنى وجدت فى كتابه اهتماماً كبيراً بما لا أظن أنه يشغل بال المسلمين اليوم ، ولا يؤثر سلباً أو إيجاباً فى حياتهم وصراعاتهم العالمية فالفصل الأول يبدأ بهذه الأحاديث التى اختارها ساحة لمعاركه : هل يعذب الميت ببكاء أهله عليه .. تحية المسجد .. حديث دنا الجبار فتدلى .. هل فقأ موسى عين ملك الموت .. هل نعي الموتى حرام .. فضل الشام .

بربكم إن كان ترفا الاهتمام بهذه القضايا من جانب فقهاء المسلمين أو علماء الحديث المغضوب عليهم من الشيخ ، فى زمن تحدى فيه أمير المؤمنين السحابة أن تمطر خارج ديار الإسلام ! إن كان بحث المسلم الآمن سيد العالم ، وقتها ، فى هذه القضايا ترفاً ؟ ! فماذا نقول فى من جعلها قضية والمسلمون يعذبون من سمرقند إلى غزة .. أليس من حق أحدهم أن يتقول على الشيخ أنه بذل جهداً كبيراً فى مبحث يهم الندابات ! واهتم بفقه القبور !

ثم ماذا اجتهد الشيخ .. ليتفاخر على السابقين ؟ !

أنكر حديث «لحم البقر داء» وبشرنا بأنه قد صدر «تصحيح من الشيخ الألبانى لحديث لحم البقر داء» وسمح لنفسه أن يقول : «وكل متدبر للقرآن يدرك أن الحديث لا قيمة له ، مهما كان سنده !» .

وقد قلنا إنها عبارة سيئة .. وقارن هذا القول بأدب وتأدب ابن حزم وتدينه وهو يفند الآراء التى تعارض الغناء فى عصره ، ويناقش الأحاديث التى استندوا إليها فى تحريم الغناء ، فيناقش سندها ويشكك فى هذا السند بعلمه وبالدليل المادى ثم يقول : «لا يصح فى هذا الباب شيء أبداً ، وكل ماورد فيه موضوع ، والله لو أسند جميعه أو واحد منه عن طريق الثقات إلى رسول الله ﷺ ماترددنا فى الأخذ به» ص ٨٤ .

ابن حزم لا يقبل المتن فى سائر أحاديث الغناء ، ولكنه يستند فى رفضها إلى علة السند ، ويعلن أنه يقبل ويسلم بالمتن رغم ما فى نفسه وعقله ضد هذا المتن ، إذا ماتوافرت شروط صحة السند ولو فى حديث واحد .

هكذا يتكلم علماء الإسلام .. إنهم لا يقولون أبداً : «لاقيمة له مهما كان سنده» أعوذ بالله .

ومع ذلك فأنا أقسم للشيخ إن لحم البقر داء ويقسم معى ألف طبيب .. وليبادر الشيخ شفاه الله وعافاه ليبادر بفحص كلوستروله ، عسى أن لا يمنعه الطبيب من أكل اللحم الأحمر ، لحم البقر بالذات !

ورضى الله عن عمر بن الخطاب الذى قال : «إياكم واللحم فإن له ضراوة كضراوة الخمر» (انظر الموطأ لمالك بن أنس) .

ثم حديث عذاب الميت ببكاء أهله الذى أفرد له الشيخ الصفحات الطوال، مستعيناً برواية منسوبة لعائشة رضى الله عنها ، انها رفضت الحديث استناداً إلى الآية الكريمة ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾

[الأنعام ــ ١٦٤] وإن كان الشيخ قد تناقض تناقضاً فاقعاً عندما قال إن الحديث الصحيح هو أن الكافر هو الذى يعذب ببكاء أهله عليه . وقد أعجبه ما سماه «تأويلاً لطيفاً» وهو قول البعض بأن تعذيب الميت ببكاء أهله عليه : «أن الميت يتعذب أى يتألم لا أن الله يعذبه ! وهو تأويل لطيف ، وإذا قبلناه لم يختلف الحديث مع الكتاب الكريم ! ولكن دون هذا التأويل صعوبات : منها أن عائشة تحلف إن رسول الله ﷺ قال إن الله يزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله ولم يذكر المؤمن» ! ويحس الشيخ مافى هذا القول من تناقض فالآية : ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ حكم عام شامل فالعدل الإلهى واحد يشمل المؤمن والكافر . وهنا يأتى الشيخ بتعليل غير لطيف على الاطلاق .. فيقول إن الكافر يزاد عذابه ــ حتى بعد موته «لأنه سبب فى إضلال غيره» وهو لف ودوران وترقيع وتلفيق فليس من العدل أن يعذب لا المسلم ولا الكافر على جريمة يرتكبها حى آخر بعد موته . وإنما التفسير الذى يستقيم هو هذا التعليل «اللطيف» أى الألم النفسى ، فالمؤمن والكافر يتألمان أو يتعذبان ، طبعاً حزناً على حزن الأهل ، المؤمن لأن أهله الباكين لا يعلمون ما صار إليه من نعيم الله ، ولو علموا لفرحوا بموته . والكافر لأنه أبصر الحق بعد فوات الأوان وهو يتألم لأن أحباءه لا يعلمون ما ينتظرهم من عذاب ولو علموا لبكوا على حياته وليس مماته .

هذا قولنا .. إذا كان عذاب الميت ببكاء أهله قضية حيوية أهم من الانتفاضة والانتخابات بالقائمة كما يسخر الشيخ من الذين يهتمون ببعض الاهتمامات التى خصص هو لها كتاباً يطبع كل شهرين .

والشيخ شديد الاهتمام بحماية موارد صفحة الوفيات فى الأهرام ، فيحمل حملة شعواء على الذين أنكروا نعى الميت ! مع أن أكثر من مصلح اجتماعى يتمنون لو كف المصريون عن عادة الفراعنة هذه والتى أصبحت تكلف العائلة المتوسطة ألوف الجنيهات ، ما بين إعلانات النعى واحتفالات الصيوان .. ثم الشكر على العزاء وغيره من بدع المصريين الذين ينفردون بها مما عابه المتنبى !!

وفى حديث تحية المسجد يبدو أن تعدد الطبعات وسرعتها قد أفسدت كلام الشيخ فلم نفهم ما يريد إذ إن كل ما فهمناه هو أن المسلمين لابد أنهم كانوا منشغلين بأداء ركعتى تحية المسجد عن سماع خطبة الرسول ، وهذا هو سر انهم لم يدونوا إلا القليل جداً من خمسمائة خطبة ألقيت فى المدينة (ص٢٧) ولكن استنتاجه مخالف لمقدمته .. فهو يقول : «كانت السنة إذن هى الاستماع للخطب ، وما جاء فى حديث الأمر بتحية المسجد كان حالة خاصة» . إن كانت السنة هى الاستماع للخطب .. فأين هى وكيف حدث كما تساءلت حرفياً ؟ أن : «كل ما دونوه بضع خطب لا تبلّغ أصابع اليدين» .

الحق أننى لا أجد تفسيراً لتلك القضية وبالاعتماد على الدليل الذى قدمه هو إلا عكس ماذهب إليه وهو أن السنة كانت فى الانشغال بصلاة تحية المسجد .. !

ومنذ بداية علم الحديث والفقهاء والمحدثون على اتفاق أن أحاديث الآحاد تعامل معاملة خاصة ، إذ لابد لها من تعزيز بأن تكون موافقة

للقرآن أو حديث مؤكد أو يقع عليها إجماع من ناحية اتفاقها مع الدين والمصلحة العامة .. فما الكشف الجديد الذى جاء به الشيخ ليشكك العامة ويعطى مادة لخصومنا بفتح حكاية «جاءت فى الأحاديث المنقولة بطريق الآحاد رواية مستغربة أن الذى دنا فتدلى هو الله !!» ص ٢٩ .

هل أنت أول من استغرب .. وما حاجتنا لاعادتها جذعة فى حديث الساق .. والله ما أذكر أحداً من أهلى ولا أصحابى ولا معارفى ولا من قرأت لهم أو قرأوا لى شغلت بالهم قضية التدلى أو الساق . فاتقوا الله فى شباب لاتنقصه بلبلة . ورحم الله الإمام سعود الأول الذى عندما سأله منهزم كيف استوى الله على العرش قال كلمة الإمام مالك : «الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال بدعة...» صدقتم .. السؤال بدعة ممن يثبته ومن ينكره سيان !

يقول الشيخ إن طالباً سأله فى الجزائر عن الحديث الذى يقول إن موسى فقأ عين ملك الموت .. «فقلت للطالب وأنا ضائق الصدر : وماذا يفيدك هذا الحديث ؟ إنه لا يتصل بعقيدة ولا يرتبط به عمل ! والأمة الإسلامية تدور عليها الرحى .. الخ » .. ص ٣٤ .

ولكن ما إن انصرف الشيخ إلى أهله حتى انساه الشيطان الأمة العربية وجلس هو على الرحى وراح يطحن لنا فى حديث ملك الموت وعينه واصبع موسى ست صفحات .

ماذا قال الشيخ ؟! استنكر ان يهرب موسى من لقاء ربه ، وان تفقأ عين الملاك ! تلك القضية التى أنست الشيخ أفغانستان وكشمير واذربيجان . وشغلت فكره حتى شغلنا بها فقال :

«وعدت لنفسى أفكر : إن الحديث صحيح السند ، لكن متنه يثير الريبة ، إذ يفيد أن موسى يكره الموت ، ولا يحب لقاء الله بعدما انتهى أجله ، وهذا المعنى مرفوض بالنسبة إلى الصالحين من عباد الله كما جاء فى الحديث الآخر «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه» . فكيف بأنبياء الله ؟ وكيف بواحد من أولى العزم ؟ إن كراهيته للموت بعدما جاء ملكه أمر مستغرب ! ثم هل الملائكة تعرض لهم العاهات التى تعرض للبشر من عمى أو عور ؟ ذلك بعيد» ص ٣٤ .

وليس الشيخ أول من استوقفه الحديث بل سبقه علماء الحديث الذين فسروا بأن الموت حادث مكروه من البشر فتلك فطرة فطرها الله ، وإلا لما قامت دنيا ولا حياة ولا عمران .. لو كانت محبة الله تعنى تمنى الموت شوقا إلى لقياه ، لخلت الأرض من الصالحين والطيبين .. ! ولما قال الرسول لأصحابه إذا لقيتم الاعداء فلا تتمنوا الموت .. وموسى وكل الانبياء بشر .. يحسون احاسيس البشر ومشاعر البشر ومن اهمها حب الحياة وكراهية الموت إلا فى سبيل العقيدة ، وهذا ما يجعله استشهادا أى التضحية بأغلى ما فى طاقة الإنسان ان يضحى به طلبا أو فداء لما يعتقد أنه اغلى من الحياة ذاتها ، وإلا لو كان الشوق إلى لقاء الله يفوق الرغبة فى الحياة بشكل واضح ، وكقاعدة عامة عند كل مؤمن ، لما كان هناك معنى للاستشهاد بل لأصبح مجرد حيلة يحقق بها المرء هدفه فى استعجال الموت ويتهرب من خطيئة الانتحار !

الشيخ يوافق علماء الحديث على أن الإنسان يحب الحياة ولكن يشترط لمشروعية هذا الحب للحياة أن يكون الإنسان فى تمام الصحة

والعافية !! أما : «الحديث المذكور فهو يتجاوز أحوال الصحة المعتادة ، وانغماس الناس فى معايشهم يزرعون ويصنعون ويتجرون ، فإن إقبالهم على الحياة لا نكر فيه ، ونزول الموت هنا يوصف بأنه مصيبة ! وما تقوم الدنيا وينشأ عمرانها إلا من هذا الشعور بالحياة وحبها . على أن المؤمن قد ينبذ الحياة الدنيا فى ساعة فداء ينصر بها دينه ويلقى بها ربه ، فهو وإن انغمس فى شئون الدنيا لاينسى أبدا دينه ، ولا ينكص عن لقاء ربه . وحديث أحمد بن حنبل يتجاوز هذه الظروف كلها ليشرح اللحظات الأخيرة من عمر المتوفى وهو فى فراش المرض . أو وهو على أبواب الآخرة ، وقد شرع ملك الموت يسترد الروح ليعود بها إلى بارئها . فى هذه الأويقات الحرجة تجىء البشرى التى يطير بها المؤمن فرحاً ، أو الأنباء التى ينوء بها الفاجر كمداً .

« فلننظر على ضوء هذه الحقائق إلى حديث فقء موسى لعين ملك الموت .. إن الملك قال لموسى : أجب ربك .. يعنى أن عمرك انتهى ، فاستعد لتسليم روحك والعودة إلى ربك !! أفى هذه العودة ما يضايق موسى ؟ قال المدافعون عن الحديث : موسى كسائر البشر يكره الموت ونقول : كراهية الموت مفهومة فى الأحوال العادية للناس العاديين . ولا معنى لها بعد انتهاء الأجل ، ومجىء الملك ليسترد وديعته ! » ص ٣٧ .

لنستعرض ما قاله الشيخ :

«الحديث صحيح السند ولكن متنه يثير الريبة»

وقلنا إن هذا قول لا يليق ، ونحن نجامل الشيخ بهذا التعليق فلم

يعرف عنا هذه الرقة فى مثل هذا ..

صحيح السند أى أنه كما قلنا من كلام رسول الله فلا مجال ولا لياقة ولا ادب فى قول القائل : « متنه يثير الريبة » .

لا ..

لا ..

خانك التعبير يامولانا ..

قل : متنه يثير التساؤل عن معناه أو مغزاه ..

يقول الشيخ عن الحديث : « ورفضه أو قبوله خلاف فكرى ، وليس خلافا عقائديا » ص ٣٦ . وكان أحرى به أن يقول : « ترف فكرى » إذ ما دام لا يمس العقيدة ، ولا يشكل أهمية فى حياتنا اليوم ، فنحن لا نقابل ملك الموت ولا نفقأ عينه ! فما أهمية الجدل حوله ؟! ألا ترى أننا عدنا إلى مبحث لو دخل رجل بأكمله فى فرج امرأة ، ومبحث القربة الملعونة إياها !

والشيخ يحاول ان يرقع ما يظنه مثقوبا فيضع نظرية مؤداها : مشروعية كراهية لقاء الله مادام فى العمر بقية .. ! فإذا بلغت التراقى والتفت الساق بالساق هنا يتفجر حب لقاء الله ! وحق أن يقال لمن هذا فعله : الآن وقد كرهت من قبل ؟ لا حبا ولا كرامة إنما هذا تسليم اليائس من الحياة ..

مصدر الخطأ ان الشيخ جعل حب لقاء الله معارضا أو مضادا لحب العاجلة الذى شهد عز وجل انه فطرة الناس ! وليس هناك من تضاد . لقد خلقنا الله لفترة معلومة نقضيها على هذه الأرض وفطر فينا حب هذه الحياة القصيرة ليكون العمران وليكون العمل الذى

يجعل لقاءنا بالله مبعث السرور . والمؤمن يعلم أن هذا اللقاء محتوم وأنه لقاء خالد يدوم أبد الدهر فما عليه إن تشبث فترة اطول ، بمن وما ، سيفارقه إلى يوم الدين ، فترة ، هى فى عمر الكون اقل من لمح البصر .

ومن أين علم الشيخ ان موسى كان فى النزع الأخير ؟! واضح أنه كان فى تمام قوته وعافيته بحيث تمكن من فقء عين ملك الموت . ومادام ملك الموت يأتى على هيئة تُرى ، فلابد أن له عينا تفقأ ، تماما كما ان الملاك الرسول الذى يأتى على قدمين يترك اثرا يمكن السامرى من قبض قبضة من هذا الأثر يفتن بها قوم موسى ..

وإرهاب الناس بحكاية لماذا تكره لقاء الله سيئة العواقب جدا وجعلت بعض الماجنين يسخرون من تداوى شيوخنا ، وصوروا الامر وكأن هؤلاء الشيوخ يحرمون غرف الانعاش أو استبدال الاعضاء أو الغسيل الكلوى ، تعجيلا بلقاء الله !

صحيح انه إذا جاء التبليغ والبشرى والخيار فليس للعبد أن يتأخر أو يختار .. ولكن الثابت أن الغالبية العظمى تموت بغتة ، وأننا جميعاً نكره الموت . والحديث هو تطمين للبشر المؤمنين بأن شعورهم هذا ليس خطيئة ، فحتى النبى موسى كره الموت وفقأ عين من جاءه به . وهذا ما يرفع المجاهدين والشهداء إلى مرتبة عالية ، فهم يقبلون على هذا المكروه البغيض حتى من كليم الله ، يسعون إليه هم طاعة لله ونصرة لدينه .

يقول الشيخ ان من يتهم بالإلحاد رافض هذا الحديث فهو يستطيل فى أعراض المسلمين .. حاشا لله أن نتهم الشيخ بالإلحاد ، ولكننا نقول إنه أثار فتنة لا مبرر لها . وتكاسل عن إعمال فكره فى مغزى

الحديث .. وهو من الأحاديث التعليمية ، ومن الإعلام بالغيب ، ولا يخضع لمقاييس النقد العادية إلا من ناحية السند وقد شهدت انه صحيح فصدق وتفكر ..

ويتساءل الشيخ : «وقد طلب موسى أن يدفن على مرمى حجر من حدود فلسطين التى جبن قومه عن دخولها فهل هذا الطلب تفسير لحرص اليهود الآن على نقل موتاهم إلى الأرض المقدسة ؟» .

ربما .. مادخلنا بذلك .. وأى حق يترتب عليه .. هل يتهم الشيخ الحديث بالصهيونية ليرهب المثبتين له ؟

يتعجب الشيخ : «ومع ذلك فإن هذا الحديث المرفوض من عائشة مايزال مثبتاً فى الصحاح» .

نعم !

وسيظل مثبتا إلى ابد الدهر !! فالصحاح اصبحت وثائق ، لا نملك الحذف فيها كما يفعل أصحاب الأديان الأخرى من حذف وتعديل كل حين فى كتبهم ! وإنه لتفكير مضحك طفولى حقا أن يفكر الشيخ وجريدته فى تجنب الحرج الذى يشعرون به إزاء سلمان رشدى والامريكان والاستراليين ، بحذف الأحاديث التى يشكك فيها هؤلاء أو ينتقدونها ، من كتب الحديث .. تماما كما وضع اليهودى يده على النص فى التوراة يريد اخفاءه عن رسول الله لأنه يحرج اليهودى وهى صورة شديدة السذاجة ، ولكن دعوة الشيخ أكثر اضحاكا .. لأن المستشرق أو المعادى للإسلام لن يهتم بصحيح الغزالى وابن احسان ، ويترك فتح البارى والطبرى ! بل سيكون ذلك انهزاما وتسليما بدعواهم وتخرصاتهم . هل تبطل تطاولات سلمان رشدى إن قلنا له ــ كما يدعو صبى الشيخ ــ صدقت ! حكاية

الغرانيق فضيحة ، ولو وقعت لأبطلت الإسلام واثبتت ان نبينا مزيف .. ولكن الحمد لله الشيخ الغزالى كذبها ، واثبت أن علماء الحديث والتاريخ شوامخ الإسلام كانوا من الغفلة بأمور دينهم ، بحيث انطلى الزور عليهم وعكفوا يتلون حديث الغرانيق ألف سنة حتى ظهر الغزالى .. وما الذى يلزم سلمان بروايتكما ؟!

نحن لا نملك تنقيح الصحاح الآن ، وإنما نملك إعمال الفكر .. كما قال الشيخ ولم يلتزم : «إنه لا خلاف بين المسلمين فى العمل بما صحت نسبته لرسول الله — ﷺ — وفق أصول الاستدلال التى وضعها الأئمة ، وانتهت إليها الأمة .. إنما ينشأ الخلاف حول صدق هذه النسبة أو بطلانها ... وهو خلاف لابد من حسمه ، ولابد من رفض الافتعال أو التكلف فيه .. فإذا استجمع الخبر المروى شروط الصحة المقررة بين العلماء فلا معنى لرفضه» ص ٣٣ .

من يعرف ذلك ، لا يجوز له أبدا أن يقول هذا القول الفاحش الخطأ والتعس التعبير : «أهل الحديث يجعلون دية المرأة على النصف من دية الرجل ، وهذه سوأة فكرية وخلقية رفضها الفقهاء المحققون !» .

أعوذ بالله .. ! سوأة مرة واحدة وخلقية وفكرية كمان ؟!!

الرأى ما نقلته انت عن «أستاذنا» مصطفى الزرقا وهو قوله : ان الدية تعويض عن مفقود (ولا داعى لوضع علامة تعجب فهى هكذا تماما ج) ولذلك فهى تتناسب مع حجم الخسارة التى تلحق بورثة القتيل أو القتيلة .. ولا دخل لها فى المساواة ، وإلا لكانت هناك تسعيرة واحدة لكل الجنس البشرى سواء أكان القتيل متسولا لا يعول أحدا أو والداً لأسرة أو ابنا شابا أمامه مستقبل حافل بالاحتمالات ..

ومادمنا نعرف أن هذا التفاوت يقع فى الدية فقط أى التعويض وأن من قتل رجلا أو امرأة أو طفلا أو شيخا ملكا كان أو سوقة ، فعقوبته واحدة .

فالأمر إذن لا يتعلق بتمييز جنسى ولا عنصرى ، ولا دخل فيه لمكانة المرأة أو سعر دمها وإنما قدرت هذه النسبة على ضوء دور المرأة الاقتصادى ، وقتها ، وهو تقدير مرن بالطبع تحكمه ظروف كل حالة بعينها ، وفى ظل الواقع الاجتماعى . فيمكن أن تقدر دية امرأة بعينها بمائة ضعف رجل آخر .. وقد ورد فى حديث سعيد بن المسيب أن : «اصبعها كإصبعه ، وسنها كسنه وموضحتها كموضحته ومنقلتها كمنقلته» وهم نظروا إلى الأمر كما قلنا من زاوية تقدير الخسارة وليس ثمن الدم أو الاحترام وإلا لما حسبوا للرجل ثلاث ديات إذا اصيبت يداه ورجلاه وعيناه» (مالك بن أنس) فهاهو يأخذ فى بعضه ثلاثة أضعاف ما يأخذ أهله فيه كله ، ومنطق أهل الحديث اقوم من منطق الشيخ ، فخسارة الإنسان فى نفسه بفقد هذه الأعضاء أكبر من خسارة ورثته بوفاته . وبنفس المنطق حكموا للأعور الذى فقد عينه الوحيدة بدية كاملة بينما هى فى عين واحدة للمبصر اقل من ذلك بكثير . فالمهم هو حجم الخسارة .

وعجباً لك ياشيخنا قبلت للمرأة ، فى حياتها أن يكون للذكر مثل حظها مرتين ، ورفضت لورثتها نفس النسبة ، وقلت انها سوأة !! ألا تدرى أنك اصبت النص بطلقاتك ، وأن البعض قد يتهمك بأنك اثرت الصخب حول الحديث لتشكك فى الآية ؟! وإلا فمادامت ترث النصف فما العيب أن يكون تعويض فقدها النصف ؟! وبمنطقك فى المساواة السوقية أليس أكثر ظلما أن ترث النصف وهى

حية .. وما يضيرها ديتها بعد ذبحها ؟!

ومرة أخرى هذا فى الدية وليس فى القصاص . ولكن الشيخ يجعلها مسألة رخص دم يقول : « فالدية فى القرآن واحدة للرجل والمرأة (!!) والزعم بأن دم المرأة أرخص ، وحقها أهون زعم كاذب مخالف لظاهر الكتاب . ان الرجل يقتل فى المرأة كما تقتل المرأة فى الرجل ، فدمهما سواء باتفاق ، فما الذى يجعل دية دون دية ؟» ص ٢٦ .

ونحن لم نجد هذا الذى يقوله فى القرآن ، فالآيات التى وردت فيها الدية هى : « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليما حكيما . ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيما » [النساء : ٩٢ ـ ٩٣] .

فلم يرد لا دية النساء ولا مساواتهن .. وإنما اعتبر الخطاب القرآنى يشمل دائما الرجل والمرأة إذا لم يخصص ، فالحديث عن مجرد دية تدفع فحسب ولكن لم يحددها .. وكما قلنا نظر الفقهاء وعلماء الحديث إليها كتعويض وأفتوا بما قلنا ، وهى كما نعرف فى القتل الخطأ فقط اما القتل المتعمد فعقوبته الإعدام سواء أكان القتيل رجلا أو امرأة أو طفلا .. ثم الخلود فى جهنم . (وأفتى علىّ فى الرجل الذى قتل امرأته لأنه ضبطها مع رجل .. ان لم يأت بأربعة شهداء ، فليعط برمته» (أى يقتل بها) .

ولا أدرى أصحيح لا يعرف الشيخ الفرق بين القصاص أو العقوبة والغرامة أو التعويض ؟! حتى يخلط بين الدية والدم ومبدأ النفس بالنفس ويثير صخبا وتشهيرا لامبرر له ولا سند ! إلا ان كانت حربا يقصد بها — كما قلنا — مبدأ : وللذكر مثل حظ الانثيين .. وبدأ بجس النبض فى الدية !

واين القفشة التى يوردها الشيخ هنا : «وقد بلغنى أن بدويا قتل مهندسا امريكيا فى إحدى دول الخليج ، وقال أهل الحديث لا يجوز القصاص ! وشعرت الحكومة بالحرج ، ولكن تم الخروج من المأزق بقتل المجرم من باب السياسة الشرعية ! وترك الحديث الوارد بمنع هذا القصاص مع صحة سنده ..» ص ٢٥ .

نعم ! ترك الحديث وعمل بحديث غيره ، فلماذا إخراج اللسان !

ورأى الشيخ فى الحجاب لا خلاف فيه وقد سبقناه إليه قبل ثلاثين سنة فى كتابنا «دراسة فى فكر منحل» وسبقنا الكثيرون ، ولكن لا أحب للشيخ أن يفتى بخبرته المحدودة فهو يستشهد بالآية الشريفة : ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم﴾ [النور — ٣٠] .. ثم يتساءل الشيخ فى حدة وسخرية: «أيغضونها عن القفا والظهر» (ص ٤٥) لابد أن الشيخ لا يصفق بالأسواق ويغض الطرف دائماً ، وإلا لما سأل هذا السؤال الذى يدل على أنه يجهل الكثير مما يجب غض البصر عنه غير الوجه ، بل لو شئنا أن نتساءل ، لقلنا لو شاء الله أن نغض البصر عن وجه المرأة لخفف عنا وأمرها بتغطيته ! وإلا فهل ترتاح نفس شيخنا ، وتنفتح نفسه لدعوة أهل أمريكا واستراليا إلى وضع وجوههم فى الأرض وهم يخاطبون المرأة أو أن يحادثها الرجل وقد

أغمض عينيه كأن فى وجهها جذاماً ينفر منه ، أو كأن الرجل المسلم لا يستطيع أن يتطلع فى وجه امرأة إلا وتتفجر شهوته ؟ ! الأقرب للفهم والتصور هو غض البصر عما يحرج المرأة أن يتطلع إليه رجل حاد البصر فاجره .. أما الوجه الذى أفتى الشيخ بكشفه ، فهو مكشوف لكى يتطلع ويتطلع إليه ، بالعفة الواجبة ، والجدية .

ونفس هذا الاستعلاء غير المبرر نجده فى تعليقه : « رفض أحد القراء مذهب أبى حنيفة ، وقال : إن لفظة « تنكح زوجا غيره » حقيقة فى الوطء وحده !! وهذا اعتراض فاحش مدهش . هل النكاح المنشود يقع عن زنى أو عن زواج ؟ لا أظن عاقلًا يزعم أن الزنى يحلل المرأة لزوجها الأول ، فلم يبق إلا أن كلمة « تنكح » حقيقة فى العقد والوطء معا ، ولكن التعصب المذهبى يجر أصحابه إلى الغرائب » ص ٦٠ .

وأعتقد أن رأى هذا القارىء اقرب للفهم ، لأن القرآن عندما يتحدث عن النكاح فهو بداهة يعنى الزواج ومن ثم فهذه ليست القضية التى تستحق التركيز واستنباط الأحكام ، فهذه بديهية ، لأن الله لا يشرع الزنى ، وإنما جاء النص فى الآية على الوطء لمنع التحايل أو المحلل ... وهذا أساس الحديث .. « حتى تذوقى عسيلته » . وهى كانت متزوجة فعلا ، وإنما أراد الرسول الوطء . ولكن شهوة المعارضة تجر صاحبها إلى مواضع ينقلب فيها علمه جهلا ..

والشيخ وقد اندفع فى تجريح الأحاديث واعتصارها ليستخرج منها القيح الذى يملأ نفس أعداء السنة ، يتعسف التأويل ويتعجل التفسير ..

مثلا : حديث المرأة التى أتت النبى قالت : يارسول الله أبى مريض وزوجى يأبى أن يأذن لى أن امرضه فقال لها النبى أطيعى زوجك فمات أبوها ورفض زوجها أن تصلى عليه فسألت النبى فقال لها أطيعى زوحك فاطاعت فقال لها النبى قد غفر الله لأبيك بطواعيتك لزوجك !!

ثم يعلق الشيخ فى حدة افتقدناها منه فى مواقف ادعى لانفعاله ، يقول الشيخ : «وهو يقطع ما أمر الله به أن يوصل ويرخص الوفاء بحق الوالدين ، وهدفه ألا تخرج المرأة من البيت ابدا وهو هدف ينكره الإسلام ، وفى الحديث الصحيح « إن الله أذن لكن أن تخرجن فى حوائجكن» ص ٥١ .

على مهلك ياسيدنا الشيخ .. جبت منين أنها كانت لا تخرج من بيتها ابدا ! والحديث يؤكد أنها خرجت مرتين على الأقل للشكوى لرسول الله ولم يمنعها زوجها ؟!

هو رمى طوب .. ؟!

تقول : « سجنا للمرأة تقطع فيه ما أمر الله أن يوصل .. » اين السجن ؟ زوج لسبب ما لا يريد لزوجته أن تزور أهلها أو أباها بالذات ، لا نعرف ظروفهم ، ولا أسباب هذا المنع ، ولا نستطيع أن ندين بدون معرفة الأسباب ، من يدرى ماكان ابوها ولا ماذا كان فعله أو علاقته بزوجها . كما لا نعرف مدى سوء هذا الزوج . هذه قضية لاذخل لها لا بسجن المرأة ولا حبسها فى بيتها ، وإنما هى قضية : هل تطيع المرأة زوجها فى ما يخالف عاطفتها حتى ولو كان

قرار الزوج قاسيا وضد اشرف العواطف ؟! وهل كان يفيدها ان تخالفه وتزوره ويموت أبوها وتفقد زوجها .. ؟ هذه قضايا تتسع للحديث والمناقشة . لا أن نجعلها دليلا على أن المرأة تسجن فى بيت المسلم فلا تخرج إلا للقبر ؟ من أين جاء هذا الاستخراج ! ومن الذى يشهر بنا وبديننا . وهذه نقطة غفل عنها الشيخ أو تغافل ، وهى أن حملته على التراث إلى حد التجريح ، والاستعانة بالمفاهيم التقدمية وميثاق حقوق الإنسان لإثبات جرم هذا التراث . وليس فقط تخلفه ، هذا الأسلوب لن يجمل الإسلام فى عيون الأجانب بل بالعكس قد يقرون أنك شيخ تقدمى متحضر وفى نفس الوقت سيقنعهم تجريحك ، ان تحاملهم علينا عادل فهاهو شيخ يؤيدهم فى أن التراث أو السلف يقدم : «للإسلام صورا تثير الاشمئزاز» ص ٥١ .

أعوذ بالله من دى الملافظ .. اشمئزاز مرة واحدة !!

كذلك حديث «لا يُسأل الرجل فيم ضرب امرأته» ؟ جعله الشيخ حديثا فى المسئولية الجنائية عند النيابة وأحال أوراق الحديث للجنة حقوق الإنسان ومنظمات تحرير المرأة ووقف يهلل لنا : «أنربى بناتنا ليذهبن إلى فحل يلطمهن أو يؤذيهن دون مساءلة فى الدنيا والآخرة ..» (يعنى حصلت الآخرة كمان) ويشكو «إن ديننا متهم بأنه ضد حقوق الإنسان» .

من الذى يجرؤ على اتهامه ياشيخ ؟! وهل أصبح الإنسان إنسانا واكتملت إنسانيته إلا منذ بعث محمد بن عبد الله ؟!

وبراعة فائقة هرب الشيخ من النص القرآنى.. ﴿واضربوهن﴾.

الحمد لله لم يقل من أحاديث الاحاد .. استغفر الله العظيم . ولكنه يدرك بالتأكيد أن تشهيره بالضرب ينال الآية ويعطى مادة للمتحاملين والأوغاد !

والحكاية أهون من كل هذه الضجة ، وقد تعرضت لها فى كتاباتى السابقة وكشفت أنها قمة فى فهم السلوك النفسى للرجل والمرأة ، فهى تبدأ بالوعظ والمعاتبة بالطبع ، ثم الهجر فى المضاجع ، أى ينام ويعطيها ظهره ليقهر غرورها ، ويثير حبها وما بينهما من ود . فإن لم يفلح ذلك كله فى ثنيها عن النشوز ضربها ولابد أن يكون الضرب بالكف وعلى غير الوجه ، ولابد أن الذين لديهم خبرة فى هذه الأمور يمكنهم تخيل ما سيجرى بين زوج محب وزوجة تقلانه وهو يحاول أن يضربها بكفه المبسوطة على غير الوجه .. اين سيضربها يامولانا وإلى متى سيستمر ضربا .. وقد أطنبت فى كتاباتى السابقة عن شتى الحالات مما لامجال لتكراره .. وإذا قبلنا الاذن الإلهى ﴿اضربوهن﴾ .. فما الغرابة فى حديث يمنع من السؤال عن سبب الضرب ؟!

أما المقصود فى الحديث الذى أثار ثائرة الشيخ فهو : إذا رأيت رجلا ضرب امرأته فلا تسأله عن سبب ضربها ، ولذلك جاءت كلمة «فيم» أى فى ماذا ضربها ؟

ياويلتى وأنا أعلم الشيخ اللغة !

وسر النهى عن سؤال الرجل عن سبب ضربه لامرأته ، هو أن هذا السؤال عن سبب الضرب ، قد يكشف ما يسوءها أو يسىء إلى العائلة، فالضرب بين الزوجين السويين غالباً ما يكون حول قضية شديدة الحساسية يفزع فيها الرجل إلى رجولته العضلية .. ولا دخل لذلك فى المسئولية الجنائية ولا أسقط حقا فى مساءلة « كيف » تضربها . وهناك رواية عن عمر بن الخطاب عندما خرج على ضيفه قائلا إذا رأيت الرجل قد ضرب زوجته فلا تسأله فيم ضربها .. ولا أظن أن عمر كان يتحدث عن المؤاخذة الجنائية ! .

ومرة أخرى أين وجه الاعتراض : الضرب .. أم السؤال ؟! ان قلت الضرب فهو اعتراض على الآية .!

وإذا كانت الأحاديث التى تتحدث عنها « مردودة كلها » ص ٦٤ . فلماذا تزعجنا وتجعلها قضية ؟

وكثير من القضايا نقر الشيخ عليها ، ولا أريد أن أقول سبقناه فيها ، وإنما الذى يزعجنا ان حجته فيها هى ارضاء الزبون الأجنبى .. كأنه بياع ، يتعامل بشعار : الزبون دائما على حق .. !

كأن يهاجم شعار الحرب الهجومية لأنه لا يليق «والمسلمون لا يقدرون على التقاط أنفاسهم ، ولا يصنعون سنانا .. الخ» كأنه يؤمن بأن الحق مع القوة ! ولأننا لا نصنع الأسلحة فيجب أن نتحلى بمكارم الأخلاق مؤقتا !!

وفى هذه القضية خلط الشيخ خلطا مزعجا ما بين الحرب العدوانية والمباغتة ، ووصل إلى تحريم المباغتة فى الحرب على

الاطلاق ؟ فقد لعن « من صدقوا أن الرسول يأخذ الناس على غرة » ! (ص ١٩٨) وبفتواه هذه يصبح قرار عبد الناصر بتلقى الضربة الأولى فى ١٩٦٧ التزاما بالشرع ! لو علمها الناصريون ما فاتتهم ! ويحق للناصريين أن يضيفوا إلى حقدهم على حرب أكتوبر ادعاء أنها مخالفة للسنة مشكوك فى شرعيتها ، إذ كان علينا أن ندعو اليهود ثلاث مرات قبل أن نوجه لهم ضربة طيران مفاجئة كما فعل سلمان الفارسى مع أصحاب الحصن !

يصعب أن نقنع أحدا أن هذا قول داعية سلام ، بل سيقول البعض إنها محاولة متواضعة لتزويق الإسلام لبيعه فى الغرب ، محاولة مستضعفين للاعتذار عن التاريخ الإسلامى ! فلو كان الشيخ حقا كما يحاول أن يبدو داعية سلام ، لبدأ السؤال هكذا : ما الذى أتى بسلمان من المدينة فى قلب الحجاز إلى حصن الفرس ، حتى حاصرهم فى عقز دارهم ، ولم يترك لهم منفذا من أسنة جنده ؟ ولكنه يقفز فوق هذه ، ويتشدق بأن سلمان ظل يخيرهم بين التسليم أو الذبح ثلاثة أيام ، كلعب القطة بالفأر .. لا .. ياسيدنا ! مشروعية غزو سلمان لبلاد الفرس هى الأساس الذى تنبنى عليه مشروعية القتال ، ثم بعد ذلك الحرب خدعة ، والفائز من بيت خصمه بالضربة الأولى المفاجئة فإن كنت ، أصلا ، شاكا فى مشروعية الفتح الإسلامى ــ العربى لفارس فلا يجديك التشبث بالنوافل .

قال الشيخ محمد الغزالى فى كتابه « السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث » : « وهناك قضايا لا يجوز فيها التساهل لخطورتها ، وقد شعرت بالغيظ والحرج وأنا أقرأ أن يهوديا وغدا سحر النبى عليه الصلاة والسلام وأعجزه عن مباشرة نسائه مدة قدرها ابن حجر بستة شهور ! أكذلك تنال القمم » ص ٧٦ .

وقبل أن نناقش هذا الأمر الذى أكرب الشيخ وجعله يبادر فى استسهال إلى رفض الحديث ليتخلص منه ومن إحراجات الامريكيين والاستراليين ، وامثال سلمان رشدى المتربصين بالمتشككين .. قبل أن نخوض فى حديث السحر .. نقف عند نقطة تبدو شكلية ، ولكنها جوهرية فيما نحن فيه وهى : إن كان الشيخ على يقين أن الرسول لم يسحره اليهودى .. فلماذا سماه باليهودى « الوغد » ما ذنب الرجل وهو لم يسحر .. هل سبه توددا للانتفاضة ومنظمة أبى نضال ، أو خشى أن يتهم بالدفاع عن اليهودى ؟! .. توقفت عند هذه النقطة التى تبدو وكأنها قفشة ، لأكشف عن بعد جديد فى حديث السحر ، وهو البعد الذى يؤكد أن ليس كل قديم متخلفاً ولا كل متحرر متقدما ، ويتضح هذا البعد من أن الموقف الإسلامى من اليهودى فى الحديث الذى يشمئز منه الشيخ ، أكثر عدلا وأكثر إنسانية وسموا من استنكار الشيخ ! شيخنا يوقن ببراءة اليهودى ، ومع ذلك سبه ونعته بالوغد لمجرد أنه يهودى !! بينما يعلمنا الحديث أن

رسول الله كان يعلم علم اليقين أن اليهودى سحر له ، ومع ذلك ولأن الدليل المادى لم يتوافر فإن الرسول لم يعبس فى وجه اليهودى ولا نعته هو ولا نعته أحد من المسلمين بكلمة سوء واحدة .. أرأيت ياشيخنا أن التقدمية والإنسانية لا تفتعل ولا تستجدى من الغرب .. إنها خلق أصيل فى حضارتنا ، التى صنعها إسلامنا .

أما عن حديث السحر فكنت قد كتبت ردا على من أثاروه منذ ربع قرن ، وهذه قضايا تثار — كما قلنا — بصفة دورية لتشكيك المسلمين فى دينهم ، يثيرها الطالح ويقع فيها الساذج ، وكنت قد نشرت هذا الرد ، أو إن شئت البحث فى كتابى «الحق المر» الذى صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٦٥ ولا أجد ما أضيفه إليه اليوم .

وإليك نصه :

«خذ مثلاً حادث السحر .. فقد تردد الحديث عنه ، لا أقول أخيراً بمناسبة ما كتب ، بل منذ بداية كتابة علم الحديث وأنكره جانب كبير من العلماء .. وحديث السحر فى شتى الروايات عن عائشة وعن عمر مولى عفره وعن عمر بن الحاكم ، أن لبيد بن الأعصم اليهودى سحر النبى ، ثم إن جبريل وميكائيل عليهما السلام .. أخبرا النبى بذلك ، فدعا جبير بن أياس الزرق ، وهو أحد الذين شهدوا بدرا ، فدله على موضعه فى بئر ذروان فخرج جبير حتى استخرجه ، وقيل ان الذى استخرج السحر قيس بن محصن . فقالت عائشة يارسول الله : فأُخرجه للناس .. وقالت ألا تحرقه (أى السحر) .. ألا تقتله (أى الساحر) فقال : لاأفتح على أمتى بابا

للشر .. أو كرهت أن أثير على الناس شرا .. وفى حديث زيد بن أرقم : « فما حدّث به ولا رُئى فى وجهه ! » وعن الزهرى فى ساحر أهل العهد قال : « لا يقتل .. فقد سحر رسول الله رجل من أهل العهد فلم يقتله » . ويرى النووى أن السحر ليس كفراً فى حد ذاته ولكن يعتبر كفراً ، إذا كان ضمن طقوسه إجراءات كافرة ، وقال : « لا يقتل عندنا » . وقال مالك : الساحر كافر .. « ويقتل بالسحر » . وقال النووى « وعندنا ليس بكافر ، فإذا ثبت أن الساحر قتل إنسانا بسحره ، واعترف أنه مات بسحره وأنه يقتل غالبا لزمه القصاص ، وقال أصحابنا ولا يتصور القتل بالسحر بالبينة وإنما يتصور باعتراف الساحر » .

وأول ساحر قتل فى الإسلام ، هو الذى جاء ذكره فى حادث جندب بن كعب بن عبد الله ، وسبب ذلك أن الوليد بن عقبة بن أبى معيط لما كان أميرا على الكوفة ، حضر عنده ساحر فكان يلعب بين يدى الوليد ، يريه أنه يقتل رجلاً ثم يحييه ، ويدخل فى فم الناقة ثم يخرج من حيائها ، فأخذ سيفاً من صيقل واشتمل عليه وجاء إلى الساحر فضربه ضربة فقتله وقال : « أحى نفسك » ثم قرأ : ﴿أفتأتون السحر وأنتم تبصرون ؟﴾ [الأنبياء ـ ٣] فوضع فى السجن فلما رأى السجان صلاته وصومه خلى سبيله ، فأخذ الوليد السجان فقتله . وقيل بل سجنه حتى أتاه كتاب عثمان باطلاقه ، وقيل بل حبس الوليد جندبا فجاء أخوه فأخرجه فانطلق إلى أرض الروم ، فلم يزل يقاتل بها المشركين ، حتى مات لعشر سنوات مضين من خلافة معاوية .. » .

أعترف أننى توقفت عندما قرأت الحديث .. ورحت أتساءل :

كيف يسحر رسول الله ؟
كيف يتقبل عقل علمى السحر ؟ ..

بل ان «ماكس ويبر» يستشهد بحديث السحر على أن الإسلام يفتقر إلى العقلانية ، ومن ثم لا يستطيع أن يبنى المجتمع الصناعى ! ثم عدت أقرأ الحديث ولنقرأه معاً .

* الفعل قد تم .

لبيد بن الأعصم مارس السحر ضد رسول الله ، والدليل عليه لا يقبل الشك أو الطعن ، فهو بشهادة رسول الله عن تبليغ من جبريل وميكائيل .. شاهدان يرجمان أهل الأرض جميعا .. فالشهادة جاءت من نفس المصدر الذى يرجع إليه ديننا كله .. فما من مسلم أو مسلمة يحق لهما أن يتشككا فى جريمة لبيد بن الأعصم ، بعد أن شهد رسول الله نقلًا عن جبريل ..

* الدليل المادى على صحة تبليغ جبريل قد وجد وهو أشياء تستخدم عادة فى السحر ، مطمورة فى البئر .

* اقترح على رسول الله أن يحرق مادة السحر لكى يبطل مفعولها ، وبالطبع كان سيصاحب الحرق بعض الطقوس ، من المؤكد أنها ما كانت لتكون من طقوس الوثنية ، أو فيها ما يغضب الله .. بل تلاوة لآيات من القرآن وبعض الدعاء .

رفض رسول الله رفضا قاطعا أن تجرى هذه الطقوس ، وقال : لا أفتح على أمتى بابا للشر .. والرسول هنا يتحدث عن الشر الذى يأتى لا من السحر الأسود ، بل من فعل إبطال السحر .. إذا ما اتخذ شكل

طقوس معينة ، فهنا أبصر صلوات الله عليه ببصيرة النبوة ، أى شر يمكن أن يفتح على أمته لو أصبح إبطال السحر سنة عن نبيهم .. أى حرفة ستنشأ تحت اسم : «إبطال السحر» ؛ أى قلق سينتاب الناس مادام السحر الموجه ضدهم لم يبطل .. أى ثقل ستكتسب عملية السحر ذاتها ، من خلال الإيمان بضرورة ابطالها بأفعال مادية وغير مادية .. فذلك وحده دليل لا يدحض على تأثيرها .. وخطورة استمرار هذا التأثير . كل هذا أغلقه رسول الله برفضه إجراء طقوس ..

* فما ذكره له رسول الله ولا رآه فى وجهه .. أى أن رسول الله لم يواجه مرتكب فعل السحر بأى اتهام ، ولا عبس فى وجهه ، ولا بدت عليه أى ملامح تشير إلى اتهام ..

* الساحر لم توقع عليه عقوبة ، ولا وجه له اتهام ، ولا حتى عومل بنفور .. ورفض رسول الله أن يقتله حتى لا يفتح بابا للشر !

وقد استند فقهاء المسلمين إلى ذلك فى عدم قتل الساحر .. والذى قرر قتله ، لم يقتله لأنه ساحر بل لأنه كافر .. وقال الآخرون إنه إذا استخدم فى سحره ما يفضى إلى الكفر .. كان مرتدا .. والصحابى الذى قتل الساحر قتله لأنه قال إنه يحيى الموتى وألقت السلطة الإسلامية القبض عليه ، وأودعته السجن ، ولولا أنه هرب بمعونة أخيه ، أو بمعونة الحارس إلى الشام حيث مات فى جبهة القتال .. لأنزلت به القصاص . وتذكر أن القاتل المقبوض عليه صحابى .. والساحر شخص مجهول لعله من الفرس أسلم أو لم يسلم .. ومع ذلك لم تتردد السلطات الإسلامية فى القبض على الصحابى ..

* ونستطيع أن نستخلص من الحديث مبدأ تشريعيا عاما ، وقاعدة قانونية خاصة .. فرغم ثبوت التهمة دينيا بطريق القطع .. إلا أنها تفتقر إلى الدليل المادى .. تفتقر إلى دليل أرضى .. فأدلة الإثبات سماوية كلها ، وهى تبليغ جبريل إلى الرسول بأن ذلك السحر من فعل لبيد بن الأعصم ، ثم إرشاده — أى جبريل — إلى جسم الجريمة المدفون فى البئر والذى تم ضبطه .

ولكن من حق المواطن اليهودى أن يشهر فى وجه العدالة الإسلامية دفاعا بطلب دليل مادى يثبت أن هذا السحر الموجود بالبئر يخصه ومن فعله .. ومن حقه أن يطلب جبريل إلى الشهادة ويخصمه .. ومن حقه أن يطعن فى شهادة رسول الله فهو لا يؤمن بأنه رسول الله ، وقد كفل له الإسلام حرية العقيدة ، فليس لنا أن نجبره على التسليم بصدق من لا يؤمن به ..

إذن فما من دليل مادى يبيح لعدالة الإسلام أن توقع عقوبة مادية . فما دامت الأدلة من السماء .. فلتكن العقوبة من السماء .. وليس من حق العدالة الإسلامية أن تعاقب ولا أن تتهم ولا أن تتجافى لمواطن يهودى يستظل بعدلها ، مادامت لا تملك دليلا ماديا من أدلة هذه الأرض ..

* وبعد هذا الحديث بعشرة قرون كانت أوروبا تشهد حرق الساحر والساجرة أحياء كاحتفالات روتينية ، وربما لايزيد الدليل على وجود مقشة أو تقوس بأنف الضحية يكفى لإدانتها بالسحر ! (ورد فى صحيفة الأهرام ١٩٦٨/٦/٨ احصائية تقول إنه قتل فى أوروبا فى

الفترة من ١٤٨٠ إلى ١٨٧٠ ثلاثمائة الف سيدة على زعم أنهن ساحرات !) وهناك مدينة شهيرة فى امريكا اسمها «ساليم» كل شهرتها أنها أعدمت طفلة بتهمة السحر فى عشية القرن الثامن عشر . «وقدر عدد الساحرات اللواتى أعدمن فى المانيا وحدها خلال مائة سنة من ١٤٥٠ إلى ١٥٥٠ بمائة الف ساحرة ، وكلهن أعدمن حرقا» .. (الأهرام ١٩٧٠/٣/٦) والقضاة الانجليز ، أدانوا ، وضميرهم مستقر ، جان دارك بالسحر بينما رفض الفقهاءَ ثبوت تهمة القتل على الساحر إلا بالاعتراف .. لاستحالة توافر دليل مادى على القتل بفعل غير مادى بمقاييس ذلك العصر ..

نظلم أنفسنا إن وقفنا من الحديث عند التساؤل .. هل سُحر رسول الله أو لم يسحر .. فالسحر مازال يمارس إلى الآن .. فهو كخرافة أو حقيقة موجود فى المجتمع .. والحديث لا يدفع أى مسلم للخوف من السحر أو الإيمان به أو الاشتغال به فقد رفض النبى كما رأينا أن يقوم بأى طقوس لفك السحر . ولكن أبعاد الحديث أعمق وأبعد من هذه القضية .. فإنه كما رأينا يضع الأساس لوقاية المجتمع الإسلامى من فتنة السحر .. وأعفى المواطنين الأبرياء من أن تنكل بهم غوغائية الجماهير ، أو أحقاد السلطة باسم السحر ..

إنه قمة خالدة فى الشرعية .. فى الأركان الواجب توافرها للإدانة .. فى المساواة المطلقة أمام القانون .. إن هذا الحديث هو أساس المبدأ القانونى الرائع «لا يقضى القاضى بعلمه» فرسول الله خير من علم وأعدل من قضى . ولكنه لا يقضى بعلمه ، ولا ينزل عقوبته بمواطن يهودى بشهادته وحده صلوات الله عليه .

كم من اليهود أعدموا وسجنوا فى حضارة القرن العشرين فى الغرب لمجرد أنهم يهود ! بل كم من اليهود أدينوا بلا دليل إلا كونهم يهودا .. أى قمة تسمو بها حضارتنا فى هذا الحديث ، وبعض الدول تعاقب على التعرض لرئيس الدولة بالإشارة !

ولكن محمدا رسول الله لم يجد نصا قانونيا يبيح له أن يعبس فى وجه من مارس السحر ضده !

لا حد لما يمكن أن تكتشفه البشرية فى تقدمها من قيم فى سنة رسول الله . (حرفيا من كتاب «الحق المر» ١٩٧٠ الطبعة الثالثة) .

كنت أعيذ الشيخ الغزالى ان يضيع ويضيع من اتبعه فى زحام التقدميين العلمانيين العصريين فيقلب كفيه مستعليا .. كيف يسحر الرسول ؟! أكذلك تنال القمم .. هون عليك ياشيخ .. لا أحد ينال من رسول الله صلوات الله عليه فقد وضعه الله على قمة لا يطار لها على جناح ولا يسعى على قدم ، ولكن الحديث وضع المسلمين على قمة تتقاصر دونها حضارات الشرق والغرب .. كيف كان يمكن أن تأتى تشريعات السحر فى صيغة أفضل من هذا الحديث ؟!

وقد رد الإمام النووى على أسلاف الشيخ من الذين رأوا فى سحر رسول الله نيلا من القمم فقال بعد أن أورد نص صحيح مسلم : «حدثنا أبو كريب حدثنا ابن نمير عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت سحر رسول الله ﷺ يهودى من بنى زريق ..» الحديث . ثم قال الإمام النووى : «وقد أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث بسبب آخر فزعم أنه يحط منصب النبوة ويشكك فيها ، وأن تجويزه يمنع الثقة بالشرع ، وهذا الذى ادعاه هؤلاء المبتدعة باطل لأن الدلائل القطعية

قد قامت على صدقه وصحته وعصمته فيما يتعلق بالتبليغ والمعجزة شاهدة بذلك وتجويز ما قام الدليل بخلافه باطل فأما ما يتعلق بأمور الدنيا التى لم يبعث بسببها ولا كان مفضلًا من أجلها وهو مما يعرض للبشر فغير بعيد أن يخيل إليه من أمور الدنيا ما لا حقيقة له ..» (صحيح مسلم بشرح الإمام النووى ــ دار الكتب العلمية ــ لبنان) .

فأنت ترى أن لسنا وحدنا السلفيين .. بل للمبتدعة أيضا أسلافهم !

وبهذه المناسبة فإن فضيلة الشيخ «محمد متولى الشعراوى» وهو من هو فى دفاعه عن السنة ، عالج حديث السحر من زاوية أخرى لم أتعرض لها فأحببت أن أثبت ما قاله داعيا الشيخ الغزالى لقراءته لعل الله يهديه ويشرح قلبه لأحاديث رسول الله التى ثبتت صحتها .

بعد أن أكد فضيلة الإمام الشيخ محمد متولى الشعراوى صحة الحديث قال :

«إلى هنا وينتهى الحديث الذى ورد فى البخارى ومسلم .. عما حدث لرسول الله ﷺ .. وقد أثار هذا الحديث جدلا كبيرا بين العلماء .. ونحن نقول .. المهم هو توثيق الحديث .. أما كونهم سحروا رسول الله عليه السلام .. فلا شئ فى ذلك ، الله تبارك وتعالى تحدى الإنس والجن فى القرآن الكريم .. فقال عز وجل : ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾ [الإسراء ــ ٨٨] .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله

وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ [يونس - ٣٨] .

إذن فالتحدى فى القرآن الكريم هو للإنس والجن .. ماذا فعل الإنس ؟ .. وماذا فعل الجن ؟ .. الإنس قاوموا رسول الله ﷺ وآذوه وعادوه .. وعذبوا المؤمنين وجاهروا بالعداء للدين .. وحاولوا منع الناس من الإيمان .. وتآمروا على قتل الرسول ﷺ .. وأحبط الله أعمالهم فى كل هذا .

إذن الإنس فشل سواء فى مجاهرته بالعداء والأذى .. أو فى تبييته وتآمره فى الخفاء . بقى أن يستخدم الإنس قوة أخرى يستعين بها .. بشرط أن تكون أقوى من الإنس وأكثر قدرة .. أى أن هذه القوة التى يستعان بها لابد أن تكون من جنس آخر غير الإنسان .. لأن قوى الإنسان فشلت أمام مواجهة الدعوة لدين الله .. والتآمر على رسوله ﷺ ..

وكانت هذه القوى هى قوة الجن . فأراد الله عز وجل أن يتحداهم بفشل قوة الجن أيضا .. ليعرف الناس جميعا .. أن قوة الإنس لن تنال من رسول الله ﷺ .. وأن قوة الجن لن تنال أيضا من رسول الله ﷺ . ماذا فعلوا ؟ ..

استعانوا بالسحر .. فدله الحق سبحانه وتعالى على أنهم سحروه .. وأرشده جل جلاله إلى مكان السحر .. وأبلغه عمن قام بسحره .. لتعرف الدنيا كلها .. أنهم لن يقدروا على محمد ﷺ .. سواء جاهروه بالعداء .. أو أخفوا هذا العداء وتآمروا عليه لقتله .. أو استعانوا بجنس آخر هو الجن .. لأن الله سبحانه وتعالى الذى

أرسله .. يكشف له ما يحدث ويبطل كيد الذين يتآمرون .. سواء كانوا إنسا أو جنا . إذن كون محمد ﷺ سحره اليهود .. هذا ليس اتهاما ضده .. ولكنه تحد للإنس والجان بأن يفعلوا أقصى ما يستطيعون ضد رسول الله ﷺ .. والله جل جلاله سينصره عليهم .. والله سبحانه وتعالى قد أدخل الجن فى التحدى بالنسبة للقرآن ومنهج الإسلام ..

وكان لابد .. تحقيقا لهذه الآيات الكريمة .. التى تحدت الإنس والجن .. أن يتم تحد حقيقى لقوى الجن .. فيحاولون النيل من رسول الله ﷺ ويفشلون .. وان يكون هذا معروفا .. ليس للجن وحدهم .. ولكن للإنس والجن .. لأن رسول الله ﷺ مرسل للاثنين .. الإنس والجن .. فلابد أن يعرفوا أن كيد الإنس والجن مجتمعين لن ينالوا منه شيئا .

ولو أن هذا السحر حدث خفية .. وليس علنا بحيث عرف به الناس .. لقالوا ان القرآن قد تحدى الإنس والجن .. والإنس دخلوا فى التحدى وفشلوا .. ولكن الجن لم يدخلوا .. وربما لو كانوا قد دخلوا فى التحدى لنجحوا .. فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يثبت لهم أن الجن لو دخلوا فى التحدى لفشلوا . كذلك قصة السحر .. فلو أنهم لم يستعينوا بالسحر والجان .. لقالوا لو استعنا بالسحر لكانت لنا الغلبة عليه .. ولو أن الحق سبحانه وتعالى أبطل السحر قبل أن يقع .. لقالوا لو أن السحر لم يبطل .. لكان لنا معه شأن آخر .

ولكن الحق سبحانه وتعالى شاء أن يستعان عليه بالسحر والجان .. وان تسحر عينا رسول الله ﷺ .. كما سحرت عينا

موسى من قبل .. ثم يدله الله جل جلاله على مكان السحر ليبطله .. وعلى من قام بالسحر ليعرفه المسلمون جميعا .

إذن هذه مسألة ليست على رسول الله وإنما هي له .. وهي تثبت لنا أن الجن قد دخلوا في التحدى ضد الرسول الكريم .. وأن الله جل جلاله نصره عليهم .

على أن السحر الذى تعرض له رسولنا الكريم ﷺ .. كان من نفس نوع السحر .. الذى تعرض له موسى عليه السلام .. وهو سحر التخيل .. الذى يؤثر على العين وحدها ولا يؤثر على العقل أو القلب ولا باقى أعضاء الجسم .. أى أن التخيل بالبصر فقط ..

ولعلنا بذلك نكون قد أوضحنا خواطرنا حول ما فهمناه من قصة سحر رسول الله ﷺ» (انتهى كلام الشيخ الشعراوى من كتاب السحر والحسد تأليف محمد متولى الشعراوى ـــ مكتبة الشعراوى الإسلامية ـــ أخبار اليوم ١٩٩٠) .

وفضيلة الشيخ الشعراوى يشير هنا إلى قوله تعالى عن موسى عليه السلام عندما واجه سحرة فرعون وألقوا العصى والحبال : ﴿ فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ، فأوجس فى نفسه خيفة موسى﴾ [طه : ٦٦ ـ ٦٧] .

فموسى عليه السلام دخل فى دائرة سحرهم من ناحية النظر ، حتى رأى ما رآه العامة .. ومرة أخرى من حقى أن أسأل الشيخ ، كيف قبلت أن يسحر النبى موسى حتى يرى الحبال والعصى تتحرك وتمشى أو تسعى .. وثرت على حديث سحر محمد .. ألا يتيح ذلك للبعض أن يقولوا الشيخ يرفض الآية ولكنه استسهل رفض الحديث ،

ولو قبلنا منطقه بأن القول بسحر نبى هو نيل من القمم ، فسيكون ذلك نيلا من القرآن ذاته ؟!

وكيف يقف التساؤل فى حلقى ، وهذه ثالث مرة يعرض أو حتى يعارض فيها الشيخ نصا قرآنيا ، من خلال الطعن فى حديث .. مرة ثار أن تكون دية الذكر مثل حظ الأنثيين .. وهاج على حديث يبيح الضرب فى تفسيره ، مع أن الحديث لا يبيح ذلك صراحة وإنما الآية هى التى تفعل .. ومرة رأى أن القول بجواز السحر على نبى نيل من القمم .. والقرآن قال : ﴿يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾ .. هذا إذا نحينا قضية التمني والقاء الشيطان ...
رباه إلى أين تدلى الشيخ ؟!

هذا عن حديث السحر كما تناولته منذ أكثر من عشرين عاما . ولقد مضيت خطوة فى هذا الاتجاه بعد عشرين سنة عند مناقشتى لحديث الذبابة فى رسالة التوحيد يناير ١٩٨٦ فقلت :

«واليوم ــ أضيف أنه بنفس المنطق يمكن أن ننظر لحديث الذبابة ، فلاشك أنه كان إعجازا فى عصره ، فما كان الميكروب قد عرف ولا اكتشف ، ولا كان الناس يعرفون سببا للأمراض التى يصابون بها ، ولا خطر ببال عالم ولا كاهن أن الذبابة تنقل «الموت» أو السم .. فهذا العلم بما تحمله الذبابة من سموم للناس، من خلال تلويث طعامهم ، هو من علم النبوة ، ولا يمكن أن يكون هناك تفسير آخر له .

والحديث علم الناس أيضا أو دفعهم لحماية طعامهم من الذباب ، فهو حديث يحض على النظافة والوقاية ومحاربة الذباب ، أو هذا ما

يفهمه العقل السليم وليس العقل المنحرف . فإن معرفتك أن عضة الكلب لها دواء ناجح هو العشرون حقنة إياها ، لا يغريك بوضع يدك فى فم الكلاب لأخذ الحقن !! بل الأحرى أن يجعلك تبتعد عن الكلاب وعضاتها ! .. ولاشك أن النفس العادية تنفر من امساك الذباب وغمسه ، فالأحرى هو تجنب الذباب أساسا ، وبخاصة أن الحديث يطلب مطلبا عسيرا هو امساك نفس الذبابة التى غالبا ما تسقط وتطير ..

فالحديث «فى عصره» كان معجزة ، وكان تعليما صحيا ووقائيا .. ولكن ما الموقف من الحديث الآن ؟! ..

أعود لحديث كنت قد أثرته أيضا فى كتاب «الحق المر» المشار إليه وهو حديث الحباب بن المنذر ولم يفهم وقتها ماذا أقصد منه ، ثم رأيت أن أؤجل شرحى أو شغلت عنه ، حتى كانت هذه المناسبة .

و «الحباب بن المنذر» هو الذى اعترض على موقع المعسكر الذى اختاره الرسول فى غزوة بدر .. فاستجاب الرسول لما قدمه الحباب من أدلة على خطأ الاختيار ، وأخذ باقتراحه ونقل المعسكر .

وقد فهمها البعض على أنها دليل ديموقراطية الرسول ، ومازال هذا البعض يستشهد بها على هذه الديموقراطية ! وهو يكشف مدى فهمهم للديموقراطية أو الشورى التى يتشدقون بها .. وأى ديموقراطية فى استجابة رئيس الدولة لمعلومات مقنعة يقدمها خبير عسكرى ؟! هذا هو التصرف الطبيعى من رئيس مسئول يعنيه مصير قومه ، والنصر فى المعركة .. ولكن لأن قومنا عرفوا قادة على استعداد لخسارة الأوطان ولا يقبلون نصيحة ! فقد قصر فهمهم على الفرحة

بديموقراطية الرسول .

لقد استشهدت وقتها بالحديث للتدليل على نوع التربية التى ربى الرسول عليها المسلمين حتى أصبح الجندى يعترض على القرار الذى لا يرى فيه حكمة حتى ولو كان صادرا عن رسول الله ذاته .. ثم طريقة السؤال والحوار والاستجابة السريعة للصواب من جانب رسول الله . وقلنا إن هذا كان درسا للطغاة والشعوب المستضعفة ، فمادام التصويب ممكنا لرسول الله ، فمن ذا الذى يدعى العصمة بعده أو يتعالى على النصح ؟! .

أما الشورى فالأدلة عليها أكثر من أن تحصى ، وهى شورى موجبة وليست استمزاجا ولا فى اطار شاوروهن وخالفوهن فالنبى يقول «أشيروا علىّ أيها الناس» وهو قد أطاع رأى شباب المدينة بالخروج فى غزوة أحد رغم أن رأيه كان ضد الخروج وأثبتت تجربة أحد ، أن رأيه كان الأصوب ، ولهذا السبب نزلت «آية الشورى» بعد غزوة أحد بالذات ، لكى لا يسىء مسلم فهم ما جرى فى أحد ، أو يسىء مستبد استغلالها فيقول إن الهزيمة كانت بسبب الشورى !! والحقيقة أنهم هزموا بسبب مخالفة الخطة العسكرية التى وضعها النبى ..

وهناك قول الرسول لأبى بكر وعمر «لو أجمعتما على أمر ما خالفتكما !» ..

وأشرنا إلى استشارتهما فى أسرى بدر فاختلفا ووافق رأى الرسول رأى أبى بكر ولكن السماء أيدت اقتراح عمر بن الخطاب .

كان رسول الله يطلب رأى الناس ، عن طريق المندوبين وليس بالاستفتاء الارهابى الذى يصيح فيه البعض : آمين ! . فيضطر الجميع للموافقة أو السكوت .. أو على طريقة : موافقون ؟ موافقون !

حديث الحباب بن المنذر له مفهوم آخر غير الديموقراطية ، فالحباب بن المنذر سأل الرسول : هل هذا أمر من الله لا نتحول عنه أم اجتهاد منك ؟

سؤال واضح صريح معناه أن هناك نوعين من الأوامر تصدر عن رسول الله أوامر إلهية .. وأخرى هى اجتهادات من فكره كبشر .. والنوع الأول فقط هو الذى يلزمنا قبوله بدون مناقشة وما عدا ذلك فهو رأى والرأى مشترك كما قال عمر فى مناسبة أخرى .

هذا هو نص المحادثة كما جاءت فى جميع كتب السيرة .. ولم يسجل التاريخ أن صحابيا علا الحباب بسيفه قائلا : ويحك «وما ينطق عن الهوى» .. بل كان رسول الله أول من تكلم بصدق النبوة :

بل هو الحرب والرأى والمكيدة .. !

أى مجرد اجتهاد منى كبشر ، مسئول عنكم ، وفى حدود معلوماتى العسكرية . وهنا لم يتردد «الحباب بن المنذر» لحظة واحدة .. بل قال على الفور : فليس هذا بمنزل ! ..

ومهما تلطفنا ومهما خفقت قلوبنا إكبارا ومحبة وإعزازا ، فعبارة الحباب هذه لا تعنى فى زمانها ولا فى أى زمان مابقيت اللغة العربية مفهومة ، لا تعنى إلا : فهذا الرأى الذى ارتأيت ليس بالرأى

الصائب يارسول الله ! ..

ولاداعى للفزع ، فهذا هو المعنى الذى أراده الله ورسوله ، وهو اثبات أن العصمة لا تكون إلا فى الأمور التى نزل بها الوحى على رسول الله . وإلا فإن الذى دبر لقاء بدر على غير موعد وأنزل الملائكة مسومين يقاتلون مع رسول الله ، ما كان يعجزه أن يرشده للموقع الممتاز لنزول الجيش ، سبحانه وتعالى وغفرانه ، وإنما هو حديث للتعليم وربما استنتج منه ابن تيمية ، قاعدته «أنه لا أحد يطاع لذاته إلا الله ، أما الرسول فإن طاعته هى طاعة لله» !

وقد قال رشيد رضا : «وإنما تجب طاعة الرسول فيما يبلغه ويبينه من أمر الدين عن الله تعالى وما ينفذه من شرعه ، دون ما يستحسنه فى أمور الدنيا بظنه ورأيه ، فالطاعة الذاتية إنما هى لله ، ولذلك قال تعالى : ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾[النساء ـ ٨٠] فطاعة الرسول ثم طاعة أولى الأمر من الأمة تبع لطاعة الله التى أوجبها للمصلحة تنفيذا للشريعة ، على أن الرسول معصوم فى تبليغ الدين وإقامته ، وقد جعله الله أسوة حسنة لأمته ، وكان الصحابة على هذا يراجعون النبى فيما يقوله برأيه فى المصالح العامة ، وكان يرجع عن رأيه إلى رأى الواحد منهم» .

«فهو ممتاز على البشر بالوحى إليه ولكنه فيما عداه وعدا ما يستلزمه بشر يجوز عليه الأعراض البشرية ، ويحتاج إلى غيره فى الأمور الكسبية ، وكونه أكمل لا يقتضى أن يحيط بكل شئ علما ويقدر على كل عمل فإن هذا لله وحده «قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك» [الأنعام ـ ٥٠]

وسواء أخذنا ما جرى فى غزوة بدر على أنه تدبير إلهى لتلقين المسلمين عبر الأجيال درسا ، أو أنه كان مجرد سابقة تاريخية لحضارة حرة الروح والفكر ، فالمهم أن ماجرى قد حدد مسار الفكر الإسلامى ، وأرشدنا إلى الطريق السليم فى التعامل مع السنة .. ونضيف هنا حادثة تأبير النخل .. فقد أمر الرسول بعض معاصريه بعدم تلقيح النخل .. قائلا : لو تركتموه لأثمر .. ففعلوا ولم يثمر .. وجاءوه وقالوا : لم يثمر يارسول الله ؟! فلم يزد ـ بأبى وأمى ـ على الاعتراف بخطئه بقوله : «أنتم أعلم بأمور دنياكم» .

ونحن نسلم ونؤمن بأن كل هذه الوقائع كانت دروساً الهية مدبرة قصد بها تعليمنا . فإن الذى يلهمه خبر الأولين والآخرين ، والذى علمه فى القرن السابع أن جناح الذبابة يحمل سما ، وأن الطاعون ينتقل بالعدوى ، وينتشر بالحركة من بلد لآخر ، ما كان ليضن عليه بخبر تلقيح النخل ، وإنما أراد الله سبحانه وتعالى أن يعلمنا من عصمته كنبى يوحى إليه ومن خطئه كبشر .. وهنا نتساءل : تعليمنا ماذا ؟

ــ أن الرسول يمكن أن يخطىء فى أمور الدنيا !

ــ عظيم .. وما فائدة ذلك الآن ؟!

وقبل أن نجيب نضيف : لو أن المسلمين ظلوا فى موقعهم فى غزوة بدر ، ولم يعترض الحباب بن المنذر .. أكان نزول الجيش بعيدا عن المياه يصبح سنة ؟! .. أو لو أن رسول الله توفاه الله قبل موعد إثمار البلح أكان تأبير النخل يغدو مكروها ، وتغدو النخلة ملعونة ، لأنها لا تثمر إلا إذا خالفت « سنة رسول الله » ؟! .. وكان الفقيه المتحدث فى الاذاعة والتليفزيون يتكىء ويتمايل ويقول: عدم تأبير النخل

«حديث صحيح مجمع عليه» ونستورد البلح من كاليفورنيا ؟! أو ان يتقدم شيخ تقدمى فيقول الحديث غير صحيح ومدسوس مهما يكن سنده ، لأنه معتل المتن ، لأن رسول الله لا يمكن أن تخفى عليه الآية الكريمة .. «وأرسلنا الرياح لواقح ..» [الحجر — ٢٢] أو لا يعقل أن تكون معلوماته عن النخل اقل من معلومات معاصريه ، وهذا الحديث يتعارض مع ما قام به ﷺ فى عملية زرع نخل مكاتبة سلمان الفارسى .. والحديث إنكار للأسباب .. الخ وعليه فالحديث مرفوض ولابد من حذفه من الصحاح .. ؟!

لا .. ما ندعو إليه خير وأصح سبيلا ..

لابد من الرجوع إلى أول هذا الحديث ، لنكشف المعجزة التى أرادها الله وعلمها لنا رسوله .

فالرسول يعلم بوحي الله أن سيكذب عليه ، وستصنع أحاديث تنسب إليه ، وسيقف المسلم حائرا أمامها ، هل «يعقل أن يخالف حديث الرسول حقائق الحياة المتفق عليها ؟» فأراد الله والرسول التخفيف عن هذا المؤمن ، وحمايته من المزورين المدلسين .

فكانت هذه الحوادث التى تعلمنا أن بعض الأحاديث المؤكدة والتى وقعت فى حياة الرسول «أخطأ» فيها الرسول فى بعض الأمور الدنيوية .. ولم يجد الرسول فى هذا مايشكك الناس ، ولا رأى ذلك الصحابة ولا التابعون ، ولا رآه كتاب السنة ومؤرخو الإسلام ، وما كان أسهل حذفها نهائيا .. فقد مرت عشرة قرون ، ولا مرجع عن الإسلام إلا كتابات المسلمين ، ولو أحس حاكم مسلم ولا أقول فقيه أو عالم حديث ، أن هذه الوقائع التى ثبت فيها «خطأ» الرسول ،

تشكك فى أمور الدين ، لما أثبتها ولأمر بقتل قائلها .

ومرة أخرى لا يفزعنك أيها المسلم كلمة «أخطأ» منسوبة إلى رسول الله .. فهو ذاته صلوات الله عليه الذى استخدمها وقال «إنما أنا بشر مثلكم أخطىء وأصيب» .. وهو ذاته الذى فرق بين ما يأمرنا به فى أمور ديننا وما يراه لنا من أمور دنيانا . فاعتبر الشق الأول ، معصوما ، لا خيار فيه ولا اعتراض .. وقد قال ابن خلدون فى أحاديث التداوى : «إن صحت عن رسول الله ، فقد بعثه الله هاديا يعلمنا ديننا ولم يبعثه طبيبا مداويا لعلل الأجساد» ! فهى من «معلومات عصره المتداولة» .. فكتاب الله هو وحده الذى لا يحتمل الخطأ ولا القصور .. وهذا ما فهمه الصحابة فلم يثر حديث النخل فى نفوسهم أى شك عن عصمة الرسول فى أمور دينهم ، وكذلك تصرف المسلمون فى غزوة بدر ، فهم لم يشكوا فى تعاليم رسول الله ، لأن الحباب بن المنذر أثبت أنه يفهم فى مواقع نزول الجيوش أفضل من الرسول صلوات الله عليه ، ولاسلموا بحكمة الحباب على طول الخط ، بل إن الحكمة الإلهية جعلته هو نفسه يردد أسوأ رأى فى اجتماع السقيفة عندما قال «منا أمير ومنكم أمير» فهو لم يكن إلا أداة لتنفيذ العظة الإلهية التى نضيعها نحن اليوم ولا نستنير بها .. وكذلك لم يشك عمر رضى الله عنه فى عصمة الرسول ، لأن الوحى صوب رأيه هو فى أسرى بدر ! وهو درس للطغاة والأكاسرة وشعوبهم المستضعفة التى تأخذها العزة بالإثم فتتصور أن اعترافها بالخطأ ولو مرة ، تشكيك فى عبقرية الزعيم الخالد !!

وأحب أن أقف هنا حول خطأ الرسول فى أمور الدنيا ، خشية أن يظن من يختطفون الكلمات ، أن الرسول صلوات الله عليه كان ساذجا يخطىء فى كل ما لا يُوحى به إليه !!

حاشا لله وإنما هى معجزة تبرز تفوق وكمال الوحى ، وليست دليل نقص الرسول فهو بلا جدال أعظم عبقرية عرفتها البشرية فى معالجة الأفراد والقضايا والجماعات ، والذى قال ان محمدا يستطيع أن يحل مشاكل العالم على فنجان قهوة لم يخطىء ولا كان يؤمن بنبوة محمد ، وكذلك الذى صنفه صلوات الله عليه وسلامه ، الأول فى أعظم مائة غيروا تاريخ البشرية ، كان يناقش أعماله وقراراته كبشر .. وإنما شاءت الحكمة الإلهية أن تبرز تفوق السماء وأنها هى وحدها المعصومة . فحتى هذا العبقرى إذا ما احتكم لعقله وحده شابه القصور أحيانا ، واحتمل رأيه الصواب والخطأ . وأضرب مثلا : فقد أجمع العرب والعجم على أنه صلوات الله عليه كان أبلغ من تكلم بالعربية ، ومع ذلك فإن من يقرأ أحاديثه وخطبه صلوات الله عليه ، ويقارنها بمحكم التنزيل فى القرآن يحس فعلا أنه ينتقل من الأرض إلى السماء .. فهو ، أكمل البشر .. غير كامل فى مواجهة الكمال المطلق سبحانه وتعالى ..

وباختصار إن حديث الذبابة قد يكون صحيحا ..
ولكنه غير ملزم لنا ..
لأنه يخالف العلم المتاح لنا .
وهو غير ملزم إذ ليس فى القرآن ما ينطبق عليه .

وقد يكون مجرد رأى لرسول الله على ضوء المعلومات المتاحة فى

عصره أو قصد به ـــ كما قلنا ـــ التنبيه لخطر السم الذى يحمله الذباب ، والحض على الحرص منه والتخويف من الطعام الذى حط عليه الذباب .. وانتفت الحكمة الآن بعدما عرفناه عن أخطار الذباب ..

غير ملزم ، إذ إن حكمته غير مفهومة لنا ، وربما يكون قد قصد بها جيل غير جيلنا وزمان غير زماننا .

وهذه أهمية الاعتراف بصحته ، لكى تبقى للأجيال من بعدنا فرصة إعادة الاجتهاد على ضوء ما يجد من حقائق ويكتشف من علوم وأدلة . فهناك الكثير من الأحكام والنبوءات والمعجزات آمن بها السلف دون دليل مادى أو عقلى ، ودون أن يؤثر ذلك فى تعاملهم مع حقائق الحياة ، ثم اكتشفت حقائقها وفهم معناها ، بتقدم المعرفة وتطور العلوم الوضعية ، ولكن ما من جيل مطالب باتباع مسلكية خاصة فى التعامل مع الكون المادى ، إذا ما كانت فوق فهمه أو متعارضة مع الامكانيات والمعرفة المتاحة فى عصره ومن هنا تراهم يقولون « حديث صحيح وغريب » !

وليس فى كتاب الله ، وما عرفنا من سلوك النبى والصحابة ولا فى العلم الحديث ما يعزز التداوى بأجنحة الذباب ! وقد شهد الرسول للمسلمين « فى عصره » بأنهم أعلم بأمور دنياهم . (نشرت فى رسالة التوحيد ٣ ص ٩٣/٩٦ يناير ١٩٨٦) .

هذا ما قلناه قبل أربع سنوات من كتاب الشيخ ، ونضيف اليوم أن الحديث الصحيح المطابق للقرآن ، لا يقبل النقاش .. وملزم إيمانا وعملا .

وكذلك حديث الآحاد الذى لا يخالف نصا قرآنيا ولا سنة ثابتة ، وإنما فيه مصلحة واضحة فيعمل به تبركا وانتفاعا .

أما حديث الآحاد أو الذى فى سنده مغمز ويخالف القرآن أو يخالف حديثا عليه إجماع فلا يؤخذ به ..

الحديث الصحيح السند ، إن بدا لنا مخالفته لظاهر تفسير القرآن أو سنة ثابتة أو المعقول فى عصرنا من العلوم والتجارب ، فلا يجوز أبدا الطعن فى صحته أو الازدراء بمضمونه . وإنما نمعن الفكر فى استنباط حكمته ، فقد تكون صيغته أملتها ظروف الزمكان (الزمان فى المكان) والحاجة إلى افهام جيل النبوة على ضوء المستوى التكنولوجى والعلمى المتاح لهم ، أو ليدخر مضمونا يفهم ويصلح فى عصر غير عصرهم . فإن أمكن استنباط هذا المعنى عمل به وانتفع ، وإلا تركنا الحديث حتى يأتى جيله الأقدر على فهمه .. دون أن نصادر حقهم فى الاجتهاد بحذف الحديث من الصحاح كما يطالب الشيخ ، كما لا يجوز أن نفر فى كل ما استعصى علينا فهمه إلى الطعن فى الحديث ، هذا موقف لا يتفق مع احترام السنة ولا احترام التاريخ أو العلم ..

وكما قلنا إن منهاج الشيخ خطير يمس حتى القرآن ، خذ مثلا قوله تعالى .. ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ [النازعات ـ ٣٠] لقد مرت قرون و «العلماء الراسخون» فى الفلك يرون الأرض منبسطة فلما تقدموا قالوا إنها كروية فلم يكتشف شكلها البيضاوى ونقصها من أطرافها إلا حديثا جدا .. فهل كان بوسع علماء القرون الماضية أن يرفضوا الآية بمنطق الشيخ : صحيح السند معتل المتن !! لا .. لا ..

يجب التدبر .. مثل حديث «إن الأنوثة تنشأ من علو ماء الانثى على ماء الرجل !! (التعجب للشيخ ص ٢٠٤) وقد حمل الشيخ على الحديث استنادا إلى مكتشفات العلم الحديث التى اثبتت «على وجه اليقين أن الجنين يتكون من حيوان منوى وحيد يخترق بويضة المرأة وهو الذى تنشأ عنه الذكورة والانوثة فليس لماء المرأة دخل فى هذا» .

هل يعلم الشيخ أن العلماء الراسخين من غير المسلمين فى عصر الوحى وبعده بمئات السنين كانوا يقولون مثل قوله هذا .. «ماء المرأة لا دخل له» فى الانجاب كله ! فالذكر يقوم بالمهمة كلها ولا يزيد دور المرأة عن الصدفة أو الحفرة أو حتى بعض الحشرات التى تضع فيها حيوانات ارقى بيضها حتى يكتمل نمو الجنين .. فكان حديث ماء الرجل وماء المرأة معجزة إلهية لأنه تحدث لأول مرة عن دور المرأة فى تكوين الجنين بل وجعلها مساوية للرجل فى صنع هذا الجنين بارادة الله ..

وإذا كان إنكار دور المرأة ينبع من الجهل وأيضا من الرغبة العامة فى تلك العصور فى انتقاص مكانة المرأة .. إلا أننا نقف عند الجانب المعجز من الحديث ، ولا نستحلبه للاشادة بتكريمه للمرأة .. ليس هذا خلقنا ..

أما حكاية جنس الذكر فالحديث لو تأملنا قليلا فى ألفاظه وزمانه لاكتشفنا أنه لا يخالف العلم بل يسبق العلم .. فالمعروف علميا — نعم علميا لعل الشيخ يرضى — ان ماء الرجل يتضمن مرة عنصرين موجبين أو رمزين للذكورة ومرة عنصرين : موجبا وسالبا أى واحد

ذكورة وواحد انوثة أما البويضة فماؤها سالب دائما ، أو انوثة .
فإذا كان الحيوان المنوى الفائز باقتحام البويضة يتكون من مذكرين ، غلب انثى البويضة وجاء المولود ذكرا .. وإن كان فيه السالب والموجب ، غلب ماء الانثى وجاء المولود انثى .. فلماذا أعزك الله أخذت الحديث بالتفسير المتواضع الذى اجتهده الناس قبل تقدم علم البيولوجى فتحدثوا عن ماء الانثى وكأنه هذا الماء الذى يرطب الرحم .. لماذا لا تأخذه بالمعنى العلمى الآن وهو تغلب كروموزومات الانوثة على كروموزمات الرجولة .. ؟! لماذا لا نبدأ بالتدبر والتفكر قبل الاستنكار والاستهزاء والتعالى والرفض والانكار .. ليس هذا خلق العلماء ولا أقول علماء المسلمين . وتأمل معجزة الآية الكريمة : ﴿وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى﴾ [النجم: ٤٥ ـ ٤٦] فالقرآن أعلمنا قبل العلم أن الذكورة والانوثة ، يتحكم فيها منى الرجل .. وجاء الحديث ينفى شبهة أن يظن أحد أن ذلك يمتد إلى الجنين ذاته ذكرا كان أو انثى فأكد مشاركة المرأة .

الأصنـــام والتمـاثيل

ويسلك الشيخ مسلك المنبت ، أو بالأحرى ، يمسك العصا من منتصفها ، فيبيح التصوير ويحرم التماثيل ، خشية أن يعبدها الناس ، ويقسم إنه رآهم بعينه يعبدون التماثيل فى جنوب آسيا ! ولماذا لا يعبدون الصور ؟! وهل عبدوا بوذا لأنهم صنعوا له تمثالا أم صنعوا له تمثالا لأنهم يعبدونه ؟!

ونحن نبدأ بسؤال الشيخ : « ماذا تقول ياسيدنا فى تماثيل سليمان التى كان يعملها له الجن . ﴿يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور﴾ [سبأ ــ ١٣].. المولى عز وجل اعتبر تسخير الجن لسليمان فى صنع ما يشاء من تماثيل من النعم التى تستوجب الشكر وبنو إسرائيل أحدث عهدا منا بعبادة الأصنام فقد عبدوا العجل ، ولكن سليمان عليه السلام سخر الجن فى عمل التماثيل ولم يعبدها أحد فى عصره فى حدود علمنا .. (وجاء فى تفسير ابن كثير : « قال عطية العوفى الضحاك والسدى : التماثيل الصور قال مجاهد وكانت من نحاس وقال قتادة من طين وزجاج ») .

إن دقة اللغة العربية تفتح مجالا كبيرا للتفكير فى هذه القضية ، وقد فكرت فى هذا الأمر وخطر لى الآتى ، فأعمل فيه الفكر لعل الله يوفقك ويزيل الشبهة من فكرك وقلبك .

أقول إن التمثال لاضير فيه إلا إذا أصبح صنماً ، بأن يعبد أو يرمز به لإله مزعوم .. ولذلك كان الجن يعملون لسليمان تماثيل وليست

أصناما . ولم يكن ذلك محرما ولا مكروها . ثم تأمل قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام التى وضحت هذا الأمر بما لا مزيد عليه وما لا يترك مجالا للشك ، فعندما ذهب عليه السلام لمحاورة أبيه وقومه ، لم يكن من لطف المحاورة أن يبدأهم بالاتهام فيسألهم : لماذا تعبدون الأصنام ؟!

هذا استفزاز ومصادرة على المطلوب كما يقولون ولذلك تلطف هكذا : « إذ قال لأبيه وقومه ماهذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون » . [الأنبياء ـ ٥٢] .

لم يقل ما هذه الأصنام .. بل ما هذه التماثيل؟ والفرق واضح .. بل أعنى لابد أن تكون هناك تفرقة وإلا لما استخدم لفظة التماثيل بالذات .. فرد قومه : « قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين » [الأنبياء ـ ٥٣] .

هنا اعترفوا هم أنها أصنام بكلمة « عابدين » ، ولو قالوا مجرد فن أو حتى إحياء لذكرى بعض أبطال أمتنا واجدادنا لكان الحديث قد اتخذ اتجاها آخر فى اطار العكوف وليس العبادة .. ولكن بكلمة عابدين جابههم إبراهيم على الفور : ﴿قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين﴾ [الأنبياء ـ ٥٤] ثم توعدهم ﴿وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين﴾ [الأنبياء ـ ٥٧] صدق الله العظيم .. تأمل حكمة التنزيل ودقة التعبير .. هى تماثيل مثل التماثيل التى صنعت لسليمان فلما اقروا بعبادتها إذن فهى أصنام .. واجبة التحطيم .

حقا ما فرطنا فى الكتاب من شئ ولكن لا يتدبرون .

ثم أفرد الشيخ فصلا فى مناقشة القدر واثبات أن الإنسان مخير

وليس مسيراً، وقد نهينا عن هذا المبحث ، وأنا أتحدى الشيخ إن استطاع فى مناظرة عامة أن يثبت ذلك ، هذه من القضايا التى لا يستحسن للمسلم الخوض فيها لأنها أعيت جميع الفلاسفة والمتكلمين . فهى من خصائص الله وصفاته سبحانه وتعالى ، وكما أن ذاته لا تدركها الأبصار ولا تحيط بها العقول فكذلك مشيئته وتصرفاته عز وجل ، الإنسان مسير ومخير معا ، ويظلم نفسه من يحاول أن يفهمها ، تماما كمن يحاول أن يفهم قول علماء الفلك ان الكون محدود ولا نهائى أو ان الكون يمتد بسرعة هائلة .. أين يمتد الكون ؟! هذه قضايا شغلت بال أهل المنطق الأرسطى عندما كان السالب سالبا والموجب موجبا ولا يجتمعان ، أما اليوم فالفكر متقدم وهو يعترف باتحاد الاضداد ورغم ذلك تبقى قضية القدر فوق منطق عقلنا القاصر ..

وقد صدر الإمام مالك كتاب القدر فى موطأه بباب النهى عن القول بالقدر أورد فيه الحديث التالى : قال رسول الله ﷺ : قال : تحاج آدم وموسى فحج آدم موسى . قال له موسى : أنت آدم الذى أغويت الناس وأخرجتهم من الجنة ؟ فقال له آدم أنت موسى الذى أعطاه الله علم كل شيء واصطفاه على الناس برسالته ؟ قال نعم . قال : أفتلومنى على أمر قد قدر على قبل أن أُخلق ؟ أخرجه مسلم .

نعم ماذا يقول الشيخ فى هذا الحديث ، وهب أنه ضعفه .. ألسنا نعلم أن الله سبحانه وتعالى أخبر الملائكة قبل خلق آدم أنه يخلقه للأرض عندما قال إنى جاعل فى الأرض خليفة ! أم نأخذ بتبرير الشيخ وهو أن هذا القول من رب العزة هو نتيجة الاطلاع على المستقبل ومعرفة ما سيفعله آدم ؟ هذا تفسير يجعل الله قارىء مستقبل

لا أكثر سبحانه وتعالى عما يصفون .. ! وإنما الأمر كما فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه أو كما قال فى حديث الطاعون .. نعم نفر من قضاء الله إلى قضاء الله .. أرأيت لو كان لك إبل ، فهبطت واديا له عدوتان . إحداهما مخصبة والأخرى مجدبة ، أليس ان رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله ؟ وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله ؟ (مالك والبخارى ومسلم) فمهما فعلنا فهو بقضاء الله ، ولكن لأن الله لم يطلعنا على قضائه ، فإن علينا أن نتحرى ونحاول الافضل دينا ودنيا ، ثم إننا نؤمن بعزته وجلاله ، وقدرته ، وعدله ، ورحمته وجبروته ، ونسلم تسليما مطلقا لارادته .. ونتبع تعاليم نبيه لأن العقل والمنطق أثبتا ان فى هذه التعاليم صلاح دنيانا أو لأن هذا يرضيه وأمر به عز وجل. ولكن لا نعتبر أنفسنا فى موقع الدائن لرب العزة، نحمل فاتورة أو صكا بافعالنا واجب الدفع والاستحقاق يوم الحساب ، وإلا شكوناه فى محكمة العدل ! سبحانه وتعالى وإنما الأمر له إن شاء غفر وإن شاء عذب .. ان كان قد كتبَنا فى أم الكتاب من الأشقياء وعذبنا فذلك أمره ولامرد لأمره ، وكيف نحاسب من السموات والأرض بيمينه ! كيف يستقيم الحديث عن عدل وحق ازاء الرب وهو الذى ألزمنا ورضينا بأن نحمده وحده على المكروه كما نحمده على المرغوب ؟! هو مولانا ونعم المولى .. على هذا كان أهل السنة ، ثم جاء المتكلمون فقالوا وأفاضوا ما لا يزعم الشيخ أنه زاد عليه حرفاً وظلت القضية قائمة ، حتى يحكم الله بينهم بالحق وهو خير الحاكمين .

غفر الله لنا ولك وبصرنا بما اخطأنا ، وهدانا لما هو أقوم ..

ملحـــق :

نص رواية الغرانيق كما وردت فى الطبرى

القول فى تأويل قوله تعالى : ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله مايلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم﴾ قيل ان السبب الذى من أجله أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ أن الشيطان كان ألقى على لسانه فى بعض ما يتلوه مما أنزل الله عليه من القرآن مالم ينزله الله عليه فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ واغتم به فسلاه الله مما به من ذلك بهذه الآيات ذكر من قال ذلك حدثنا القاسم قال ثنا الحسين قال ثنا حجاج عن أبى معشر عن محمد بن كعب القرظى ومحمد بن قيس قالا جلس رسول الله ﷺ فى ناد من أندية قريش كثير أهله فتمنى يومئذ أن لا يأتيه من الله شيء فينفروا عنه فأنزل الله عليه والنجم إذا هوى ماضل صاحبكم وما غوى فقرأها رسول الله ﷺ حتى إذا بلغ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألقى عليه الشيطان كلمتين تلك الغرانقة العلى وإن شفاعتهن لترجى فتكلم بها ثم مضى فقرأ السورة كلها فسجد فى آخر السورة وسجد القوم جميعاً معه ورفع الوليد بن المغيرة تراباً إلى جبهته فسجد عليه وكان شيخاً كبيراً لا يقدر على السجود فرضوا بما تكلم به وقالوا قد عرفنا أن الله يحيى ويميت وهو الذى يخلق ويرزق ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده إذ جعلت لها نصيباً فنحن معك قالا فلما أمسى أتاه جبرائيل عليهما السلام فعرض عليه السورة فلما بلغ الكلمتين اللتين ألقى الشيطان عليه قال ما جئتك

بهاتين فقال رسول الله ﷺ افتريت على الله وقلت على الله مالم يقل فأوحى الله إليه وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره إلى قوله ثم لا تجد لك علينا نصيراً فمازال مغموماً مهموماً حتى نزلت عليه وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم قال فسمع من كان من المهاجرين بأرض الحبشة أن أهل مكة قد أسلموا كلهم فرجعوا إلى عشائرهم وقالوا هم أحب إلينا فوجدوا القوم قد ارتكسوا حين نسخ الله ماألقى الشيطان حدثنا ابن حميد قال ثنا سلمة عن ابن اسحق عن يزيد بن زياد المدنى عن محمد بن كعب القرظى قال لما رأى رسول الله ﷺ تولى قومه عنه وشق عليه ما يرى من مباعدتهم ما جاءهم به من عند الله تمنى فى نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب به بينه وبين قومه وكان يسره مع حبه وحرصه عليهم أن يلين له بعض ما غلظ عليه من أمرهم حين حدث بذلك نفسه وتمنى وأحبه فأنزل الله والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى فلما انتهى إلى قول الله أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألقى الشيطان على لسانه لما كان يحدّث به نفسه ويتمنى أن يأتى به قومه تلك الغرانيق العلى وان شفاعتهن ترتضى فلما سمعت ذلك قريش فرحوا وسرهم وأعجبهم ما ذكر به آلهتهم فأصاخوا له والمؤمنون مصدّقون نبيهم فيما جاءهم به عن ربهم ولا يتهمونه على خطأ ولا وهم ولا زلل فلما انتهى إلى السجدة منها وختم السورة سجد فيها فسجد المسلمون بسجود نبيهم تصديقاً لما جاء به واتباعاً لأمره وسجد من فى المسجد من المشركين من قريش وغيرهم لما

سمعوا من ذكر آلهتهم فلم يبق فى المسجد مؤمن ولا كافر إلا سجد إلا الوليد بن المغيرة فإنه كان شيخاً كبيراً فلم يستطع فأخذ بيده حفنة من البطحاء فسجد عليها ثم تفرق الناس من المسجد وخرجت قريش وقد سرهم ماسمعوا من ذكر آلهتهم يقولون قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر وقد زعم فيما يتلو أنها الغرانيق العلى وأن شفاعتهن ترتضى وبلغت السجدة من بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ وقيل أسلمت قريش فنهضت منهم رجال وتخلف آخرون وأتى جبرائيل النبى ﷺ فقال يا محمد ماذا صنعت لقد تلوت على الناس مالم آتك به عن الله وقلت مالم يقل لك فحزن رسول الله ﷺ عند ذلك وخاف من الله خوفاً كبيراً فأنزل الله تبارك وتعالى عليه وكان به رحيماً يعزيه ويخفض عليه الأمر ويخبره أنه لم يكن قبله رسول ولا نبى تمنى كما تمنى ولا أحب كما أحب إلا والشيطان قد ألقى فى أمنيته كما ألقى على لسانه صلى الله عليه وسلم فنسخ الله ماألقى الشيطان وأحكم آياته أى فأنت كبعض الأنبياء والرسل فأنزل الله وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته الآية فأذهب الله عن نبيه الحزن وأمنه من الذى كان يخاف ونسخ ما ألقى الشيطان على لسانه من ذكر آلهتهم أنها الغرانيق العلى وأن شفاعتهن ترتضى يقول الله حين ذكر اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى إلى قوله وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى أى فكيف تنفع شفاعة آلهتكم عنده فلما جاءه من الله ما نسخ ما كان الشيطان ألقى على لسان نبيه قالت قريش ندم محمد على ما كان من منزلة آلهتكم عند الله فغير ذلك وجاء بغيره وكان ذلك الحرفان اللذان ألقى الشيطان على لسان رسوله قد وقعا فى

فم كل مشرك فازدادوا شراً إلى ماكانوا عليه حدثنا ابن عبد الأعلى قال ثنا المعتمر قال سمعت داود عن أبى العالية قال قالت قريش لرسول الله ﷺ إنما جلساؤك عبد بنى فلان ومولى بنى فلان فلو ذكرت آلهتنا بشئ جالسناك فإنه يأتيك أشراف العرب فإذا رأوا جلساءك أشراف قومك كان أرغب لهم فيك قال فألقى الشيطان فى أمنيته فنزلت هذه الآية أفرأيتم اللات والعزى ومنات الثالثة الأخرى قال فأجرى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق العلى وشفاعتهن ترجى مثلهن لا ينسى قال فسجد النبى ﷺ حين قرأها وسجد معه المسلمون والمشركون فلما علم الذى أجرى على لسانه كبر ذلك عليه فأنزل الله وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته إلى قوله والله عليم حكيم حدثنا ابن المثنى قال ثنا أبو الوليد قال ثنا حماد بن سلمة عن داود بن أبى هند عن أبى العالية قال قالت قريش يا محمد إنما يجالسك الفقراء والمساكين وضعفاء الناس فلو ذكرت آلهتنا بخير لجالسناك فإن الناس يأتونك من الآفاق فقرأ رسول الله ﷺ سورة النجم فلما انتهى على هذه الآية أفرأيتم اللات. والعزى ومناة الثالثة الأخرى فألقى الشيطان على لسانه وهى الغرانقة العلى وشفاعتهن ترتجى فلما فرغ منها سجد رسول الله ﷺ والمسلمون والمشركون إلا أبا أحيحة سعيد بن العاص أخذ كفا من تراب وسجد عليه وقال قد آن لابن أبى كبشة أن يذكر آلهتنا بخير حتى بلغ الذين بالحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ من المسلمين أن قريشاً قد أسلمت فاشتد على رسول الله ﷺ ماألقى الشيطان على لسانه فأنزل الله وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلى آخر

الآية حدثنا ابن بشار قال ثنا محمد بن جعفر قال ثنا شعبة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير قال لما نزلت هذه الآية أفرأيتم اللات والعزى قرأها رسول الله ﷺ فقال تلك الغرانيق العلى وان شفاعتهن لترتجى فسجد رسول الله ﷺ فقال المشركون انه لم يذكر آلهتكم قبل اليوم بخير فسجد المشركون معه فأنزل الله وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته إلى قوله عذاب يوم عقيم حدثنا ابن المثنى قال ثنى عبد الصمد قال ثنا شعبة قال ثنا أبو بشر عن سعيد بن جبير قال لما نزلت أفرأيتم اللات والعزى ثم ذكر نحوه حدثنى محمد بن سعد قال ثنى أبى قال ثنى أبى عن أبيه عن ابن عباس قوله وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته إلى قوله والله عليم حكيم وذلك أن نبى الله ﷺ بينما هو يصلى إذ نزلت عليه قصة آلهة العرب فجعل يتلوها فسمعه المشركون فقالوا إنا نسمعه يذكر آلهتنا بخير فدنوا منه فبينما هو يتلوها وهو يقول أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألقى الشيطان ان تلك الغرانيق العلى منها الشفاعة ترتجى فجعل يتلوها فنزل جبرائيل عليه السلام فنسخها ثم قال له وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته إلى قوله والله عليم حكيم حدثت عن الحسين قال سمعت أبا معاذ يقول أخبرنا عبيد قال سمعت الضحاك يقول فى قوله وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الآية أن نبى الله ﷺ وهو بمكة أنزل الله عليه فى آلهة العرب فجعل يتلو اللات والعزى ويكثر ترديدها فسمع أهل مكة نبى الله يذكر آلهتهم ففرحوا بذلك ودنوا يستمعون فألقى الشيطان فى تلاوة النبى ﷺ

تلك الغرانيق العلى منها الشفاعة ترتجى فقرأها النبى ﷺ كذلك فأنزل الله عليه وما أرسلنا من قبلك من رسول إلى والله عليم حكيم حدثنى يونس قال أخبرنا ابن وهب قال أخبرنى يونس عن ابن شهاب أنه سئل عن قوله وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الآية قال ابن شهاب ثنى أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحرث أن رسول الله ﷺ وهو بمكة قرأ عليهم والنجم إذا هوى فلما بلغ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى قال ان شفاعتهن ترتجى وسها رسول الله ﷺ فلقيه المشركون الذين فى قلوبهم مرض فسلموا عليه وفرحوا بذلك فقال لهم إنما ذلك من الشيطان فأنزل الله وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى حتى بلغ فينسخ الله ما يلقى الشيطان فتأويل الكلام ولم يرسل يا محمد من قبلك من رسول إلى أمة من الأمم ولا نبى محدّث ليس بمرسل إلا إذا تمنى واختلف أهل التأويل فى معنى قوله تمنى فى هذا الموضع وقد ذكرت قول جماعة ممن قال ذلك التمنى من النبى ﷺ ما حدثته نفسه من محبته مقاربة به قومه فى ذكر آلهتهم ببعض ما يحبون ومن قال ذلك محبة منه فى بعض الأحوال أن لا تذكر بسوء . وقال آخرون بل معنى ذلك إذا قرأ وتلا أو حدث ذكر من قال ذلك حدثنى على قال ثنا عبد الله قال ثنى معاوية عن على عن ابن عباس قوله إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته يقول إذا حدث ألقى الشيطان فى حديثه حدثنى محمد بن عمرو قال ثنا أبو عاصم قال ثنا عيسى وحدثنى الحرث قال ثنا الحسن قال ثنا ورقاء جميعاً عن ابن أبى نجيح عن مجاهد قوله إذا تمنى قال إذا قال حدثنا القاسم قال ثنا الحسين قال ثنى حجاج عن ابن جريج عن مجاهد مثله حدثت عن

الحسين بن الفرج قال سمعت أبا معاذ يقول أخبرنا عبيد قال سمعت الضحاك يقول فى قوله إلا إذا تمنى يعنى بالتمنى التلاوة والقراءة وهذا القول أشبه بتأويل الكلام بدلالة قوله فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته على ذلك لأن الآيات التى أخبر الله جل ثناؤه أنه يحكمها لا شك أنها آيات تنزيله فمعلوم بذلك أن الذى ألقى فيه الشيطان هو ماأخبر الله تعالى ذكره أنه نسخ ذلك منه وأبطله ثم أحكمه بنسخه ذلك منه فتأويل الكلام إذاً وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تلا كتاب الله وقرأ أو حدّث وتكلم ألقى الشيطان فى كتاب الله الذى تلاه وقرأه أو فى حديثه الذى حدث وتكلم فينسخ الله ما يلقى الشيطان يقول تعالى فيذهب الله ما يلقى الشيطان من ذلك على لسان نبيه ويبطله كما حدثنى على قال ثنا عبد الله قال ثنى معاوية عن على عن ابن عباس فينسخ الله ما يلقى الشيطان فيبطل الله ماألقى الشيطان حدثت عن الحسين قال سمعت أبا معاذ يقول أخبرنا عبيد قال سمعت الضحاك يقول فى قوله فينسخ الله ما يلقى الشيطان نسخ جبريل بأمر الله ماألقى الشيطان على لسان النبى ﷺ وأحكم الله آياته وقوله ثم يحكم الله آياته يقول ثم يخلص الله آيات كتابه من الباطل الذى ألقى الشيطان على لسان نبيه والله عليم بما يحدث فى خلقه من حدث لا يخفى عليه منه شىء حكيم فى تدبيره إياهم وصرفه لهم فيما شاء وأحب القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفى شقاق بعيد﴾ يقول تعالى ذكره فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته كى يجعل مايلقى الشيطان فى أمنية

نبيه من الباطل كقول النبى ﷺ تلك الغرانيق العلى وان شفاعتهن لترتجى فتنة يقول اختباراً يختبر به الذين فى قلوبهم مرض من النفاق وذلك الشك فى صدق رسول الله ﷺ وحقيقة ما يخبرهم به وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل ذكر من قال ذلك حدثنا ابن عبد الأعلى قال ثنا ابن ثور عن معمر عن قتادة أن النبى ﷺ كان يتمنى أن لا يعيب الله آلهة المشركين فألقى الشيطان فى أمنيته فقال ان الآلهة التى تدعى أن شفاعتها لترتجى وأنها للغرانيق العلى فنسخ الله ذلك وأحكم الله آياته أفرأيتم اللات والعزى حتى بلغ من سلطان قال قتادة لما ألقى الشيطان ما ألقى قال المشركون قد ذكر الله آلهتهم بخير ففرحوا بذلك فذكر قوله ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض حدثنا الحسن قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن قتادة بنحوه حدثنا القاسم قال ثنا الحسين قال ثنا حجاج عن ابن جريج فى قوله ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض يقول وللذين قست قلوبهم عن الإيمان بالله فلا تلين ولا ترعوى وهم المشركون بالله وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل ذكر من قال ذلك حدثنا القاسم قال ثنا الحسين.قال ثنى حجاج عن ابن جريج والقاسية قلوبهم قال المشركون وقوله وإن الظالمين لفى شقاق بعيد يقول تعالى ذكره وان مشركى قومك يا محمد لفى خلاف لله فى أمره بعيد من الحق. القول فى تأويل قوله تعالى ﴿وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾ يقول تعالى ذكره وكى يعلم أهل العلم بالله أن الذى أنزله الله من آياته التى أحكمها لرسوله ونسخ ما ألقى

الشيطان فيه أنه الحق من عند ربك يا محمد فيؤمنوا به يقول فيصدقوا به فتخبت له قلوبهم يقول فتخضع للقرآن قلوبهم وتذعن بالتصديق به والاقرار بما فيه وأن الله لهادى الذين آمنوا إلى صراط مستقيم وأن الله لمرشد الذين آمنوا بالله ورسوله إلى الحق القاصد والحق الواضح بنسخ ماألقى الشيطان فى أمنية رسوله فلا يضرهم كيد الشيطان والقاؤه الباطل على لسان نبيهم . وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل ذكر من قال ذلك حدثنا القاسم قال ثنا الحسين قال ثنى حجاج عن ابن جريج وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك قال يعنى القرآن القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم﴾ يقول تعالى ذكره ولا يزال الذين كفروا بالله فى شك ثم اختلف أهل التأويل فى الهاء التى فى قوله منه من ذكر ما هى فقال بعضهم هى من ذكر قول النبى ﷺ تلك الغرانيق العلى وان شفاعتهن لترتجى ذكر من قال ذلك حدثنا ابن بشار قال ثنا محمد قال ثنا شعبة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه من قوله تلك الغرانيق العلى وان شفاعتهن ترتجى حدثنى يونس قال أخبرنا ابن وهب قال قال ابن زيد فى قوله ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه قال مما جاءك به إبليس لا يخرج من قلوبهم زادهم ضلالة . وقال آخرون بل هى من ذكر سجود النبى ﷺ فى النجم ذكر من قال ذلك حدثنا ابن المثنى قال ثنا عبد الصمد قال ثنا شعبة قال ثنا أبو بشر عن سعيد بن جبير ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه قال فى مرية من سجودك . وقال آخرون بل هى من ذكر القرآن ذكر من قال ذلك حدثنا القاسم قال ثنا الحسين قال ثنى حجاج عن ابن جريج ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه قال من القرآن .

فهرست الكتاب

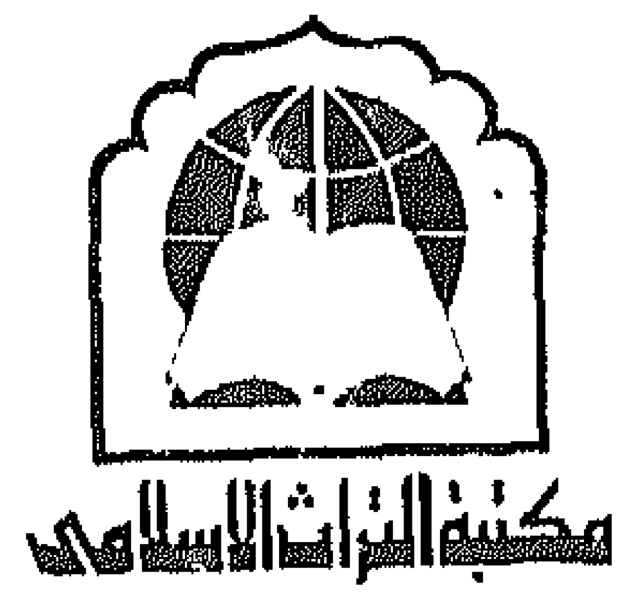
رقم الايداع : ٤٧٥٥ / ١٩٩٠

طبع بدار نوبار للطباعة

صدر حديثاً

المسلمون والروس يقررون مصير العالم

محمد جلال كشك



مكتبة التراث الإسلامي

ت : ٣٩١١٣٩٧ ـ ٣٩٢٥٦٧٧ ـ فاكس . ٣٩١٣٤٠٦